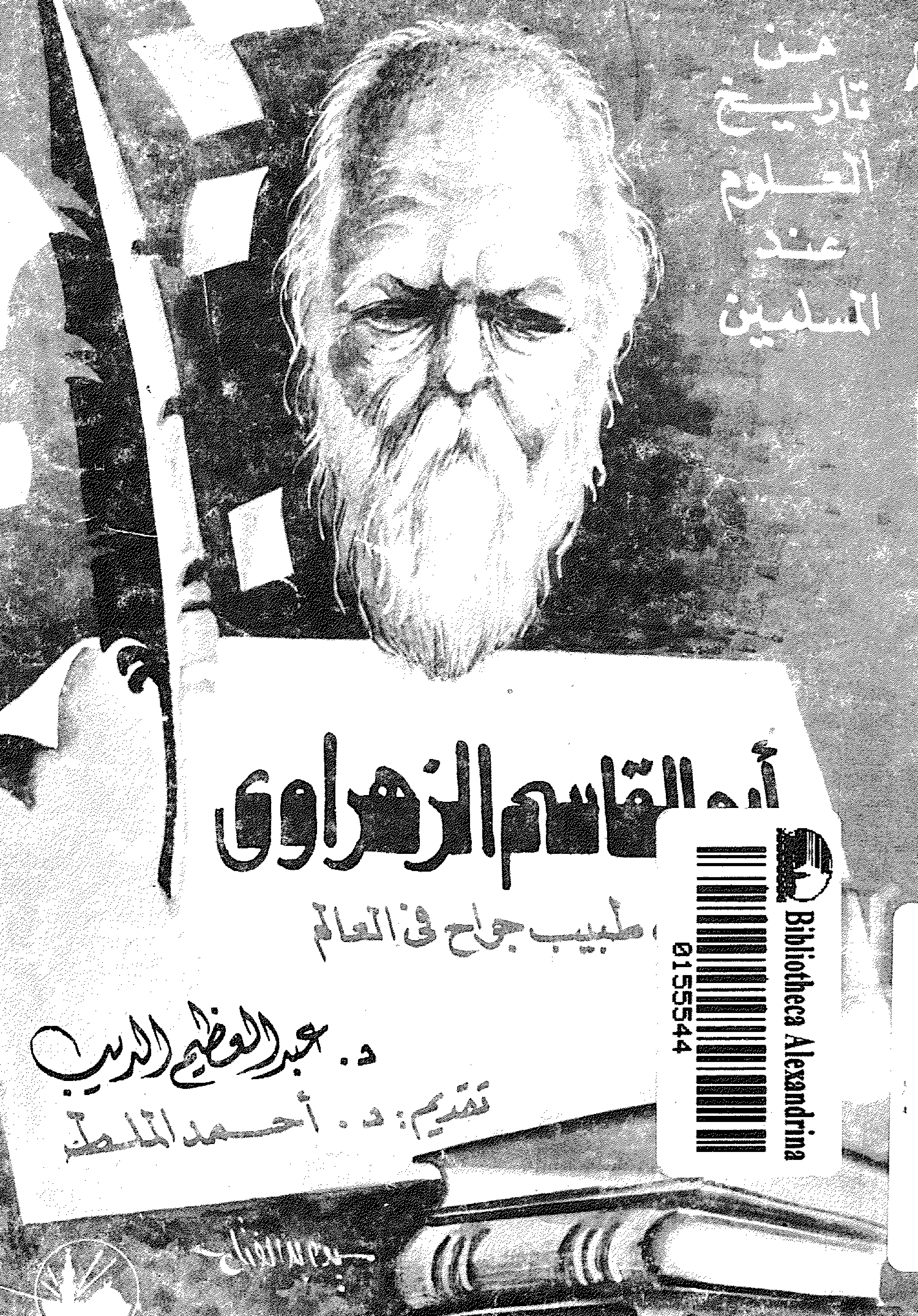

من تاريخ العلوم عند المسلمين
القاسم الزهراوى
طبيب جراح فى العالم
د. عبد العظيم الديب
تقديم: د. أحمد الملط
Bibliotheca Alexandrina
01555544

من تاريخ العلوم عند المسلمين

(١)

أبو القاسم الزهراوى

أول طبيب جراح فى العالم

تأليف : الدكتور عبد العظيم الديب

تقديم : الأستاذ الدكتور أحمد الملط

توزيع

دار الأنصار

٨١ ش البستان ناصية شارع الجمهورية

عابدين ت ٩٣١٥٨١

الإهـــــداء

- إلى كل أبى متطلع إلى بعث أمجاد أمة الإسلام
- إلى كل حائر متردد وإلى كل متشكك متراخ
- إلى الجميع أقدم قبسا من نور تاريخنا الإسلامى

عبد العظيم الديب

من كان يعرف نفسه حصفا

وطبيعة الإنسان . قد علما :

أن غربنا بالشرق مرتبط

لا يمكن التفريق بينهما

جوتة

شاعر ألمانيا وفيلسوفها

ترجمة نازك الملائكة

« أديبة وشاعرة عراقية »

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما » :

المقدمة

بقلم
الاستاذ الدكتور أحمد محمد الملط

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين . . وبعد .

فقد أعز الله الاسلام . رضيناه دينا ونوراً وتماما النعمة وطريقا إلى الجنة فله الحمد إذ هدانا لهذا الدين وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وله سبحانه المنة والفضل إذ جعلنا من أهل التوحيد وبشرنا بالجنة ماصدقنا وعدنا معه .

ولقد شمل الاسلام كل أمور الدنيا والآخرة وحوى القرآن الكريم حلا لكل مشاكل الانسان فى كل عصر ومكان . هداه الطريقين « وهديناه النجدين » وترك له حرية السير فى أحدهما وحذره مغبة الشر ، ويسر له طريق الخير وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وجعل خير الناس خيرهم للناس . وعن الرسول ﷺ « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى ».

والقرآن معجزة الرسول ﷺ ،ماسبقه بمثلها أحد من الأنبياء قبله. نزل منجما ليتدبر المسلمون ويعملوا بما جاء فيه. وكان الصحابة

لقد حث الله تعالى رسوله على القراءة والتعلم بالقلم والعلم قراءة وكتابة وتجربة ، وكلما زاد علم الانسان زاد معرفة بالخالق العلى الكبير. كلما ارتفع درجة فى سلم العلم علم أنه لم يعلم إلا القليل « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وسلم العلم لانهاية له، حتى عصر النهضة الحديثة كان العلم التجريبى يحبو حثيثا ثم طفر طفرة شديدة فى عصر التجربة ،فبينما كنا فى أوائل هذا القرن نعجب لرؤية السيارة والقاطرة إذا بنا فى منتصفه نرى الصاروخ عابر القارات ينتقل آلاف الأميال فى غمضة العين . بل ونسمع عن سفر السابحات فى الفضاء إلى المريخ، ويضع الانسان قدمه على القمر . إنه العلم و التجربة وأساسه القلم الذى أمسك به الانسان فتعلم وزاد علمه مع التجربة .

وهذه الصفة الحديثة فى العلم ما أتت من فراغ ، ولكن لها جذوراً فى أعماق التاريخ تنبئنا عنه أخبار السابقين وما وصلوا إليه على سلم الحضارة . بل إننا لنسمع عن حضارات اندثرت بعد ازدهار وزالت آثارها ، وأقرب مثل لذلك تلك القارات القابعة فى الاطلنطى وما يقال عن حضارتها كثير .

والعلم إن لم تصحبه روح نقية وضمير يعرف الخالق حق معرفته ، وعاطفته تنزهه عن الشطط والتهور هو خطر على البشرية

رضوان الله عليهم إذا مانزلت آية يحفظونها ويعملون بهـا . ولا ينتقلون إلى غيرها إلا بعد تمام العمل بالسابقة . كما نزل متحديا بلاغة العرب وقدرتهم أن يأتوا بسورة من مثله ، وما استطاعوا . تحدث عن أنباء الأمم السابقة حديث الصدق مصدقا لما بين يديه من الـكتاب ، ومهيمنا عليه مصدقا بالسابقين من الرسل وماجاءوا به من رسالات ، نزل شاملا لـكل شئون الدين والدنيا ، ينظم حياة الفرد وحياة الجماعة بل والمجتمعات أين حلت ومتى وجدت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولقد كانت أولى آياته التى تلقاها ﷺ من الوحى الأمين تأمر بالعلم (اقرأ باسم ربك الذى خلق) وتحض على المعرفة ، خلق الانسان من علق . وأين كانت الحضارة حينئذ من هذا العلق الذى قرر القرآن الـكريم أنه خلق منه ، كانت وأيم الله لم تولد بعد فلم يعرف هذا العلق علميا إلا بعد أن عرف المجهر ورأى الإنسان معه الـكائنات الدقيقة التى لا ترى بالعين المجردة ، ولـكنه العليم الخبير علم الانسان مالم يعلم فى سابق عمره فصنع الآلة التى زادت من معرفته بعلم الله فزاده إيمانا بعلم الله وقدرة الله وخلق الله . لقد رأى الانسان هذا العلق أو الحيوان المنوى كما نسميه نحن فى القرن العشرين الذى لم ينته بعد . بينما القرآن الـكريم يخبرنا خبره منذ أربعة عشر قرنا من الزمان .

بأجمعها بل إنه العلم المدمر . وبالأمس القريب انشطرت الذرة بفضل العلم واستبشر الناس خيراً بتلك القوة الهائلة التي تصنع المعجزات وإذا بتلك الخطوة خطر على البشرية بأجمعها بعد أن كانت القنبلة الذرية ، وأول تجربة لها في هيروشيما حيث هلك من البشر مئات الآلاف في لحظة عين ، وما زال أهل اليابان يعانون منها منذ الحرب العالمية الثانية . واليوم نعلم أن المخزون من قنابل الدمار والموت الجماعي يكفي لتحطيم الكرة الأرضية ومن عليها عشرات المرات . إنه العلم المجنون المدمر الذي يقضي به العالم على نفسه بنفسه . لقد اتجه العلم هنا نحو الدمار والخراب بدلا من البناء والتعمير . ولا حدود للتفكير عند البشر ، فكلما علم جديداً حاول ما بعده ،وظني أنه ساع في هذا الاتجاه إلى أن يأتي على الأخضر واليابس على هذه المعمورة من خلال تدمير شامل لايبقي ولا يذر ، ويحضرني في هذا قول الحق تبارك وتعالى «حتى إذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » ، وما هذه النهاية الفاجئة في ظني إلا دماراً مفاجئاً يحصد الارض ومن عليها في لمح البصر ، فماظنك الآن بذلك المخزون من أسلحة الدمار الشامل والقنابل الهيدروجينية .

كنت مرة فى حوار مع أستاذ للكيمياء العضوية فى جامعة القاهرة وهو زميلى وصديق قديم فحضرنى وأنا أتلو القرآن، وسمعنى أتلو « وإذا البحار سجرت » فسألنى عن معنى الكلمة الاخيرة فقلت له: أى اشتعلت ناراً، فصمت برهة ثم قال: ماذا يعنى اشتعال البحار وهى من الماء. ثم أجاب: نفسه بنفسه أليست القنبلة الذرية يدخل فى صنعها الماء الثقيل وهو يستخرج من المحيطات ويحتوى « هيدروجين ٣ » ثم أليس تفجير تلك القنبلة الهيدروجينية يأتى من خلال تسلسل تفجر ذرات الهيدروجين الذى تحكم فيه الانسان فجعله ينفجر بنسبة خاصة ودرجة خاصة لايتعداها. ما ظنك إن سقطت قنبلة هيدروجينية فى المحيط وهو يحوى من ذرات الهيدروجين مالا يحصى ثم انفلت عيار تفجير الذرات فتفجرت أحداها ثم الأخرى، وهكذا، وبدأ التسلسل فى مياه المحيط. ألا يعنى ذلك انفجار المحيط كله فى غمضة عين فيشتعل ناراً فى لحظة أو لحظات. ألا يكون ذلك مصداقا لتلك الآية الكريمة. آمنت بالله ....على هذه الصورة قد تكون نهاية العالم.

وبالأمس القريب فى الأربعينيات من هذا القرن شب أوار الحرب العالمية الثانية فأكلت الأخضر واليابس من أوربا، وفقد من رجالها ستون مليونا من البشر كانوا وقوداً للانانية وحب الذات

والتعالى على الغير. النازية تقول بعظمة الجنس السامى والدم الأزرق فتحاول غزوغيرها من الأمم، ويتحد ضدها الانجليز والامريكان بل ويتحالفون مع شيطانهم الدب الروسى كما عبر عن ذلك تشرشل حصان الحرب العجوز ، وتدخل اليابان الحرب مع الالمان فى قطعة من أرض الروس. ويركب ترومان رأسه فيقذف بآخر سهم فى جعبة العلم ،قنبلة صغيرة على اليابان يكون حصادها مئات الألوف من القتلى والمشوهين ، بل إن فى اليابان حتى اليوم من الاحياء من لايزالون يعانون من الامراض الاشعاعية التى تسببت عن هذه القنبلة وانفجارها. إنه العلم المدمر الذى يحصد بالآلاف ولا يبالى بالقيم،ولكنها الغاية تبرر الوسيلة. والعجيب أن الطيار الذى رمى بهذه القنبلة على مدينة هيروشيما ظل يتعذب من وخز الضمير حتى أصابه الجنون وأدخل إحدى المصحات العقلية ولكنه لم يشف مما أصابه. وكأنه شمشون هدم المعبد على نفسه وغيره.

واليوم وبعد خمسة وثلاثين عاماً من تلك الحرب الضروس نعلم أن المخزون لدى الدول التى تملك الأسلحة الذرية ، أسلحة الدمار الشامل ، يكفى لتدمير الكرة الأرضية مرات عديدة، بل إننا لنقرأ فى صحف اليوم. الأهرام ٢٥/٤/٧٩ خبراً له معنى خطير وهو

أن التسرب الذى حصل فى مفاعل ذرى أمريكى قد يتسبب مثله فى شق عميق داخل القشرة الارضية قد يصل عن طريق الاشعاع تحت باطن الارض إلى الصين .

ياله من جنون وهوس فى عقول أولئك الذين يصنعون ويخزنون تلك الاسلحة ويهددون بها العالم بما فيه أرضهم وأنفسهم. ليس لهذا ، وأيم الله من تفسير سوى سذاجة تلك العقول على ماحدث من علم ، وضلالها عن استعمال العلم لخير البشرية وصدق الله العظيم « كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى »

إن أمر نهاية العالم بهذه الطريقة ليس بالمستبعد. والعجيب أن العالم كله فى سباق نحو هذه النهاية المؤلمة ، لا تردعه الاحداث ولا يوقفه قربه من تلك النهاية السحيقة التى قد يتردى فيها إن ظل على غوايته متبعا هواه غير متعظ بما سبق من نكبات حلت على الارض .

وليعذرنى القارىء الكريم إن أعطيت تلك الصورة المظلمة لنهاية العالم . ولكن هناك على الجانب الآخر صور للخير كثيرة . . يعمل فيها الانسان بما يأتى بالخير على البشرية كلها . وأقرب هذه الصور فى نفسى ولعلى لا أكون متحيزا هى مهنة الطب.

الطب رسالة قبل أن يكون مهنة ،يتحلى صاحبها بالحكمة والتعقل والتدبر قبل أن يتحلى بعلم الطب . والطبيب يبذل من ذاته وجهده لراحة البشر وتخفيف آلامهم ،والطبيب الحاذق هو من يعرف أقرب الطرق للوصول إلى ثقة المريض ومن ثم علاجه من مرضه .

وأسمى درجات الجهاد بذل النفس فى سبيل الخير . فما بالك عن يبذلها وهو يعلم ضعفه أمام الخالق، إن الطبيب إن كان مؤمنا هو أقرب العلماء إلى الله ،لهذا يبذل راضيا يبغى رضى الحق تبارك وتعالى . وكثير من الاطباء كان شهيد البذل والتجربة . بل إن مكتشف مرض الدرن مات بعد أن جرب أثر الميكروب على نفسه فالتهمه المرض ،وهو لويس باستير. والمرض هو ألد أعداء الانسان، فهو بطبعه وغريزته كفور بنعمة الله « قتل الانسان ما أكفره من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره » محبا للحياة كارها للموت، وأمثلة العوام فى ذلك كثيرة وأقربها « الله يطول عمرك .. ياطويل العمر » فهو بغريزته مصاب بالوهن، وهو حب الدنيا وكراهية الموت ،إلا من آمن بالله وابتغى لقاءه.ومن هنا كان حب المريض للطب والطبيب ،بل وتقديسه لهذه المهنة التى يرى فى شخص

صاحبها المنقذ الوحيد من هذا الخطر الداهم وهو الموت . وكلنا يعلم كبشر مقدار معاناة المريض حين يمرض واستعجاله فى طلب الطبيب ظناً منه أنه ربما أطال عمره . وما للطبيب فى العمر من حيلة . « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

والطبيب إذا عرف الله كان قريباً من الأنبياء . فهو أقرب الناس إلى نفس المريض وأحس الناس بإحساسه ، بل والمسهم لضعفه أمام المرض وحاجته لمن حوله . وأقربهم ليس أمه أو أباه ، بل هو الطبيب . ومن الأمثلة العامية المعروفة « المريض ريحته وحشه والفقير عدو الناس من غير سبب » ولا يخلو هذا المثل من الصدق والطرافة . فآلم الناس للمريض هم أهله . وحين يثقل المرض وتشتد العلة يضيق أهل المريض بالمريض ويأتى الوقت الذى يتمنون فيه موته راحة له ولهم . إنى لأذكر رجلا كان من أغنى أغنياء البلدة يمتلك ضياعا واسعة فى الشرقية ، وكان بوهيميا يعيش على الغريزة . عاش بين الخيل المسومة والأنعام والحرث الكثير ، ولم يسعد بزوجة تشاركه تلك السعادة ، ولكن كان كالحيوان يختار من النساء من شاء ثم يتركها ليختار غيرها . ثم جاءته لعنة الله فى شكل شلل نصفى أسفل . فقد معه حركة الساقين والفخذين ، بل وفقد القدرة على التحكم فى البول والبراز . ولم يسعفه ماله ولا خيله حين اشتدت به العلة حتى أن خدمه تركوه رغم المغريات من سوء رائحته وحاجته لمن ينظف

جسده . مات هذا الرجل وحيدا فى قصره ولم يعلم أحد بموته إلا من رائحة عفن الموت مختلطة ببقايا البول والبراز بعد أيام من موته.

لقد ظل هذا الرجل بعد موته أمثولة يتحدث بها الناس سنين طويلة لمن تجبر وكفر بنعمة الله فأذله الله بالمرض . ومات ولم يأخذ من ماله شيئا . ولم يترك وريثا . فتقاسم الناس أرضه ومتاعه بل وقصره . إنها العبرة لمن أراد أن يعتبر بذلة المريض حين يفتقد الصحة فلا يجدها . والعون من الناس فلا يلمسه • ويظل طريد المرض والحاجة إلى أن يشفى أو يتلقفه الموت •

وعلى الوجه الآخر من هذه المهزلة الدائمة • مهزلة المرض والموت وكلاهما مكتوب على البشر ومسجل عند رب البشر • نجد الطبيب نفسه • يحس بضعفه أمام غائلة المرض • وقد يستحث علما لإنقاذ المريض فيخذله العلم إذا ما حم القضاء • وربما أعطى المريض كل مقومات الحياة ولكن هيهات إذا حانت الساعة وبلغت الحلقوم. هنا يرفع الطبيب يديه مسلما بقدرة القادر الجبار الذى ينتزع سر الحياة من بين اللحم والعظم فإذا به فى لحظة حطاما يأكله الدود ثم ترابا تذروه الرياح •

لقد هزتنى فى هذا المعنى حادثة عاصرتها واشتركت فيها كمساعد

لجراح كبير فى لندن هو بروفسور هولمز سيلور جراح القلب المشهور ٠كان يجرى نوعا من الجراحة فى قلب مريض وهى تغيير أحد الصمامات التالفة ٠ وهذا النوع من العمليات يستدعى إيقاف القلب تماما عن النبض،ويكون المريض من الناحيةالتشريحية ميتا٠ فلا نبض ولا تنفس ٠ولـكنه من الناحية الفسيولوجية أى الوظيفية حى ٠ إذ أن جسمه يغذى عن طريق رئة صناعية وجهاز قلب صناعى يضخ الدم فى جسمه بعد أن ينقى من خلال جهاز الرئة الصناعية ٠

أوقف الجراح نبض القلب بمادة البوتاسيوم بعد أن فتح الصدر ٠ وأصبح القلب مجرد مضغة لحمية لا حراك فيها ٠ وبدأ بمبضعه يفتح تلك المضغة ٠ وغير الصمام التالف ٠ وأنهى عمله فيه ٠ ثم جاءت اللحظة الفاصلة إعادة النبضة إلى هذا القلب للميت الحى ٠ وهذه تتأتى بلمس القلب بتيار كهربى يوقظه فينبض ٠ والمعروف أن اللمسات المسموح بها جراحيا لا تزيد عن أربع أو خمس لمسات وإن زادت احترقت عضلة القلب ٠

لمس الجراح القلب اللمسة الأولى فأحدث فيه صدمة كهربية نبض على أثرها نبضتين ثم سكت ٠لمسه الثانية فنبض نبضتين أخريين ثم سكت . لمسه الثالثة ففعل كما فعل فى السابقتين وسكت أيضا ٠

هنا أصبحنا على حافة الهاوية كما يقولون، لم يبق أمامنا إلا لمسة واحدة نتوقع أن ينبض على أثرها هذا القلب ويستمر نبضه فتعود الحياة لهذا المريض الميت الحى أو يسكت إلى الأبد .

هنـــا يذكر الجراح شيئين اثنين وتتقلص الدنيا أمام عينيه فلا يرى إلا هما :

الأول : أن هذا المريض الذى دخل غرفة العمليات على قدميه قد يخرج منها على محفة جثة هامدة إن لم يتحرك قلبه مرة أخرى وهنا وخز الضمير. فالجراح هو الذى أوقف القلب عمدا حتى يستطيع إجراء الجراحة . ثم هو الآن لا يستطيع إنقاذ هذا القلب فهو إذن قد حكم على هذا المريض بالموت وقد أراد له الحياة .

الثانى : أن هذا الجراح مهما أوتى من علم وتجربة فإن علمه محدود وخبرته قد لا تنفع عندما يكون الفاصل بين الموت والحياة قيد شعرة . وهنا يصحو عنده الضمير وتنكشف له رؤية الخالق الجبار واهب الحياة إن شاء أخذها متى شاء .

لقد فقد أستاذنا أعصابه عندما توقف القلب عن الاستجابة للصدمات المتتالية . وذكر تلك المعانى الأخيرة فنسى نفسه وعلمه .

ونسى الغرفة المعقمة والاحتياطات المذهلة ضد التلوث التى أجريته قبل يوم الجراحة . وذكر شيئاً واحداً هو الله القادر .

رفع أستاذنا البرونستانتى يديه إلى أعلى وأمسك بشعره وصرخ بأعلى صوت : O sod . Hdp mva يا رب ساعدنى .

ثم لمس اللمسة الأخيرة المسموحة: فإذا بالقلب يستجيب ويستمر فى النبضة والرجل أمامه مذهول يكرر كلمة الشكر لله . ولم يبدأ فى إنهاء العملية وإقفال الصدر إلا بعد ساعة من الزمن ظل ينظر إلى هذا القلب الذى استمر نبضه منتظما بعد أن مدت يد الله فنبهت هذا القلب النائم .

إنها حقا روح الله نفخها فى جسم ابن آدم فكان إنسانا ذا عينين ولسانا وشفتين وعقلا وسمعا وبصرا . وإن شاء أخذ منه هذا السر فأماته وأقبره .

والطبيب الحاذق حين يؤمن هو أقرب الناس لهذا المعنى وأفهمهم له حين يحس ضعفه ويلمس قدرة الله . ومن هنا كان للطب والطبيب قدره إذا ما أعطى من ذاته وجهده لمساعدة المريض على الشفاء . وتعلم قدر طاقته حتى يعطى المريض خير ما وصل إليه علمه وتجربته ، فهو بهذا خليفة الأنبياء حقا وخاصة إن تخلى عن

الاستغلال والفائدة وعمل فى مهنته بنية البذل والعطاء ، لا بنية الفائدة والتجارة .

ولقد فاض التاريخ الطبى بكثير من عمالقة العلم ومكتشفى أنواع العلاج والأدوية والجراحات وامتلأت المكتبة الطبية بمجلدات للمئات منهم ، ولكن لم يثبت على التاريخ من هؤلاء إلا من كان علمه مقرونا بمعرفة ذاته . وضعفه أمام قدرة الله . بل وتأكده من أن كل رسالته أن يخفف آلام الناس ويساعدهم على الشفاء والبرء من أمراضهم ولكن ليس له فى العمر حيلة . وهذا هو دور العلم البناء الذى ينفع البشرية تماماً كمن يصلح الأرض لتنبت نبتا طيبا أو يبنى المصانع لتخرج للناس نتاج العقل البشرى فيما يخدم البشر ويرفع مستواهم ، محققا هنا قول الحق تبارك وتعالى « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه » حيث سخر الأرض ليسعد الإنسان فيها ويحس بنعم الله عليه إذا ما عمل واجتهد مؤمنا بوجود الله وبفضل الله وقدرة الله . ولكن كثيراً من الناس لغافلون عن آيات الله ونعمه إلا القليل ، وهؤلاء هم العلماء . والأطباء من أرفع العلماء مستوى إذا ما وصلوا هذه الدرجة من القرب إلى الله والاعتراف بعظمته وقدرته .

ولئن درج العرب على ذكر مآثر قدمائهم حتى لقد غصت المكتبة العربية بالمجلدات تحكى مفاخر العرب وتقدمهم فى كل شئون الدنيا يوم أن كانت أوربا تغط فى جهالة القرون الوسطى ، فلقد ظفر جراحنا الكبير أبو القاسم الزهراوى بأقل القليل من تلك المخطوطات ، حتى لأنى أحد الذين قرءوا اسمه لأول مرة على صفحات كتاب « أبو القاسم الزهراوى » للاخ الدكتور عبد العظيم الديب . لقد بذ المسلمون غيرهم فى ميدان الطب ، بل وسبقوهم لقرون عديدة . وقرأنا الكثير عن الفارابى وابن سينا والرازى وابن زهر وابن رضوان وغيرهم من جبابرة الطب فى تلك القرون السحيقة التى كانت مدنية الغرب فيها لم تولد بعد .

لقد جاء الزهراوى فى عصر الأندلس حيث فتحت أوربا أبوابها على المصاريع لحضارة الاسلام وانتشر ذلك النور فى أرجائها بفضل علماء المسلمين ، وكان للزهراوى بشهادة المؤرخين العرب منهم والمستشرقين على السواء فضل كبير وفتح علمى .

ونظرة إلى الكتاب الذى عدد فيه المؤلف مناحى النشاط المختلفة لهذا العالم الجليل تعطى صورة صادقة لما كان عليه عقل هذا العالم الجبار وسعة فكره وشموخ نظره ، ويكفى أن يعلم القارىء أن مجلده الضخم « التصريف لمن عجز عن التأليف » والذى يحوى

ثلاثين جزءا لموسوعة علمية شملت مناحي كثيرة من العلوم وليس الطب فحسب وليس للجراحة فيها من نصيب إلا جزءا واحدا. حرص المؤلف على تعداد أنواع الجراحات فيها دون الدخول في تفاصيل أحدها . وظنى أن عنده العذر إذ لو فعل لما كفى مجلد كبير لشرحها وإعطائها حقها من التسجيل للتاريخ .

لقد أغفل كثير من علماء الشرق والغرب على السواء اسم أبى القاسم رغم ما وصل اليه من مستوى على ضم بين جنباته كل فروع العلوم المعروفة حينئذ فلم يقتصر على الطب أو الجراحة فحسب، ولكنه كان أيضا عالما فى الكيمياء والتعدين والتغذية ، بل والصناعة وقمة النبوغ فى علم الزهراوى أنه كان يعمل ما يقول عنه قبل أن يسجله . وهذه خصلة هى فى الواقع أصل النهضة الحديثة عند الغرب افتقدها العالم الاسلامى فى عصرنا هذا . فكثرت الكتابة وقل العمل والتجربة . فتوقفت عقولنا عند التسول من حضارة الغرب التجريبية الحديثة، وفقدنا معها أولى مقوماتها وهى التجربة .

ولقد كان من أسباب إهمال ذكر الزهراوى ذلك العالم الجليل ، كما يقول المؤلف ، أنه كان يعمل بيده الأمر الذى عابه عليه علماء عصره إذ كانوا يأنفون من إجراء الجراحة ويتركونها للحجامين

(الحلاقين) وقد ظلت الجراحة وقفا على الحجامين إلى عهد قريب ولكن الزهراوى كان فى هذه العصور السحيقة يجرى الجراحة ويضيف لها بل ويصنع لها الآلات . الأمر الذى أصبح اليوم قمة العمل للابتكار ، بل والاكتشاف . فإذا علمنا أن الصاروخ الذى يدور حول الأرض أو يذهب إلى المريخ لا يقربه إلا من يجربه . لعرفنا قيمة التجربة عند الزهراوى وعصره . وقيمتها اليوم فى عصر النهضة الحديثة التى أصبح فيها للتجربة المكان الأول فى طرق الابتكار .

واليوم وقد بدأ ضوء الفجر يسطع على للشرق الاسلامى من جديد ، وبدت بوادر النهضة الاسلامية فى كل مكان لا يسعنا إلا أن نذكر بالفخر والاعتزاز قدماء عمالقة الطب الاسلامى فى شخص الزهراوى ، فما شهد به علماء العرب من عظمة هذا الرجل وما قاله البروفسور Treind الانجليزى (أبو القاسم محى الجراحة ومؤسسها) ليسير مع الحق والصدق : والفضل ماشهدت به الأعداء .

ولا ينبغى أن نبخس العالم المعاصر حقه بل نقر ونعتز بما فيه من طفرة علمية كبيرة تقوم على التجربة والتحليل واستخلاص النتائج .

وإذ أقدم لهذا الكتاب القيم مقدرا ماقام به الأخ المؤلف من جهد فى جمع تلك المعلومات وتركيزها فى صفحات معدودة تعطى صورة صادقة عن هذا العملاق الكبير . فانى أتقدم له باسم الجمعية الطبية الاسلامية بالقاهرة . تلك الجمعية التى ولدت حديثا لتكون أثراً من آثار نهضة الاسلام الحديثة فى مجال الطب وتربية الطبيب المسلم وتعريفه حق الله عليه وواجبه نحو المريض مسلماً كان أوغير مسلم ،لأجد فى هذا التقديم حلاوة الايمان تنبع من بين ثنايا خلق الأخوة الأطباء الذين اتخذوا الجمعية الاسلامية لهم أما . مشوا فى ركابها . يرجون رضى الله تبارك وتعالى وينشرون على الناس هدى الاسلام وخلق المسلم من خلال العمل الصامت ، معطين من ذواتهم وجهدهم فى سبيل الله لا يبتغون حمدا ولا شكوراً . ولكن ينتظرون رضى الله والقبول فى الآخرة، وخير مثل لخير الدين والدنيا نقدمه للمسلمين عملا لا قولا . أخ كريم هو الأستاذ الدكتور أحمد القاضى عالم كبير وأستاذ فى جراحة القلب والصدر فى جامعة كاليفورنيا . جمع الخيرين وسار على الطريق . فهو قمة فى الجراحة الدقيقة وقمة فى العمل الاسلامى إذ يرأس الجمعية الطبية الاسلامية فى الولايات المتحدة وكندا. ويعمل مع إخوة له فى الله فى الحقل الطبى هناك عمل المسلمين .

ولقد بدأت الطلائع هنا وبزغ النور حثيثا ،فأنشئت للمستوصفات

فى القاهرة والأقاليم والعمل جاد نحو إنشاء المستشفى الخيرى إن شاء الله . وغير ذلك كثير ومن الله التوفيق والقبول .

وما كل ذلك إلا استمرار لثورة الزهراوي وأمثاله من عمالقة الطب فى الاسلام، والخير باق مادامت السموات والأرض «فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض»

رحم الله الزهراوى وأجزل عطاءه ونفعنا بعلمه ومعرفته آمين .

دكتور أحمد محمد الملط

(الإسلام والعلم)

من المعلوم المشهور أن المسلمين أسسوا دولة مترامية الأطراف شملت جل المعمور على وجه الأرض ، فى أقل من مائة سنة ، وأن هذه الدولة بلغت حد الكمال فى نظمها وسلامة مجتمعها .

ومن المعلوم والمشهور أيضا أن المسلمين برعوا فى الإنتاج الأدبى شعرا ونثرا ، وفلسفة وفقها وحديثا وتصوفا . كل ذلك معلوم مشهور .

ولكن الذى يجهله الكثيرون أن إنتاج المسلمين فى العلوم الطبيعية ربما فاق إنتاجهم فى سائر المعارف الاخرى .

فلقد وعى المسلمون جيداقول الله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . واستمعوا إلى النبى الأمى صلى الله عليه وسلم وهو يقول :« من سلك طريقا يطلب به علما سلك الله به طريقا إلى الجنة » وإلى ما أثر عنه من أنه كان يفضل مجلس العلم على مجلس الذكر .

فاندفعوا منذ فجرهم وبكل طاقاتهم ، يبحثون عن المعارف

الإنسانية أنى وجدوها وينهلون منها ، ويتمثلونها ، حتى استطاعوا أن يحفظوا التراث الإنسانى ، من الضياع والهوان ، وقد سارت العناية بالعلم جنبا إلى جنب مع تأسيس الدولة وتأمين حدودها ، فلم تلههم الحروب والانتصارات والفتوحات المتتالية عن إرساء قواعد النهضة العلمية ثابتة قوية ، وتمجيد العلماء ورفع منارة العلم .

فها هو الأمير الأموى خالد بن يزيد بن معاوية رضى الله عنه ينصرف عن الإمارة وجاهها إلى العلم ، فيستقدم عددا من علماء الإغريق ليترجموا له كتب الطب والحكمة والكيمياء ، ويكب عليها دارسا متعلما ، واستمرت العناية بالعلم والعلماء تنمو ، حتى جاء عصر المأمون الذى كان يدفع لمن يترجم الكتاب مثل وزنه ذهبا . (لاحظ ضخامة الكتب وسمك الورق فى تلك الأيام) .

وكان بيت الحكم وقصر الحاكم مثابة للعلماء ومأواهم ومقرهم الطبيعى ، وكان بلاط الحكام أشبه بندوات علمية ، ينهل منها المبتدئون ، ويتبارى فيها الأساتذة .

وتقدير الحكام للعلماء وإجلالهم أرفع المنازل أمر مشهور معروف ، وقصصه متداولة على كل لسان نذكر منها ما كان من الخليفة العباسى المعتضد مع ثابت بن سنان الطبيب حين كانا

يسيران معا ، وسبها الخليفة ووضع يده على يد الطبيب ، وسرعان ما سحبها معتذرا وهو يقول : ليس هكذا يكون ، فإن العلماء يعلون ولا يعلون .

ومعرفة لشأن العلم والعلماء قال قائلهم : إذا أراد الله بأمة خيرا جعل العلم فى ملوكها ، والملك فى علمائها . وكأنما استجاب الله ، فكان كل ملوك المسلمين وحكامهم يحبون العلم ويقدرونه ، فلا يستوزرون إلا عالما .

فنحن نستطيع أن نقول : إن الدولة الإسلامية كانت دولة (علمية) بمعنى أنها تعتمد على العلم ، وتبنى عليه أساس حضارتها ونهضتها .

ومن هنا كان هذا الاهتمام العجيب بالعلم ، فلم تعرف أمة فى التاريخ عنيت بالعلم كما عنيت الأمة الاسلامية بالعلم فى عصورها الزاهية ، حتى كان العلم والحركة العلمية جزءا من حياتها وكيانها .

وقد أصبحت اللغة العربية بفضل هذه الجهود كاللغة اللاتينية بالنسبة للأمم الغربية ، بل أصبحت اللغة العلمية العالمية أو الدولية ، وكان على طلاب العلم أن يتعلموا اللغة العربية حتى يتمكنوا من مسايرة التقدم العلمى ، وكان كل من أراد أن يكتب علما يقرؤه

الناس لجأ إلى اللغة العربية، ذلك لأن اللغة العربية غدت لغة العلم ولا لغة غيرها .

جهود المسلمين فى ميدان العلم

وما إن تم للمسلمين إحياء التراث الإنسانى (ما كان منه فارسيا أو إغريقيا أو هنديا أو رومانيا) حتى أخذ علماؤهم ومفكروهم بيد الانسانية فى طريق النور خطوات فساحا . فلم يكونوا مجرد نقلة لعلم الأقدمين السابقين ، بل إن من المحال أن نتصور أن تنقل أمة العلم من أمة أخرى دون أن تكون قادرة على هذا النقل فاهمة لما تنقل، أى أن تكون قد بلغت من التقدم الحضارى ما يؤهلها لاستساغة العلم الذى تنقله .

ولا نستطيع أن نؤرخ لما أداه المسلمون للانسانية فى هذه الصفحات ، ولكن ماسنذكره لا يعدو أن يكون مجرد ملاحظات وأمثلة سريعة .

١ — المنهج العلمى :

يزهو العصر الحديث ويباهى بأنه عصر العلم ، عرف أهله أسلوب البحث العلمى والطريقة العلمية فى التفكير ، وراح الغربيون

يمجدون (فرنسيس بيكون) على أنه صاحبها ومبتكرها ، مع أن من علماء المسلمين من سار عليها ، وسبق (بيكون) ومنهم من أدرك من عناصرها ما لم يدركه (بيكون) .

وليس أدل على توافر الروح العلميـــة أو الذهنية العلمية من إجماعهم على تفضيل أرسطو ، وما ذاك إلا لأن طريقته التجريبية لاءمت أذواقهم ، ونزعاتهم العلمية .

ومقدمات كتبهم زاخرة بالإرشادات والحـكم والتوجيهات التى تتضمن منهاجهم فى البحث ، وطريقتهم فى التفـكير ، ومقدمة ابن خلدون أشهر من أن يشار إليها، ومقدمة كتاب الحيوان للجاحظ مشهورة كـذلك ، فهو يدعو إلى التثبت والانصاف ، وتجنب الشبهة وإحقاق الحق .

ويروى الأصفهانى : اجتمع متكلمان فقال أحدهما : هل لك فى المناظرة ؟ فقال الآخر : على شـــرط ألا تغضب ، ولا تعجب ، ولا تشغب ، ولا تقبل على غيرى وأنا أكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلا ، ولا تجوز لنفسك تأويل مثلها على مذهبى ، وعلى أن تؤثر التصادق ، وتنقاد للتعارف ، وعلى أن كلا منا يبغى من مناظرته أن الحق ضالته ، والرشد غايته . ويقول النظام : إن الشك والتجربة هما الركنان الأساسيان للبحث . ويقول : الشاك أقرب إليك من

الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى غيره حتى يكون بينهما حال من الشك، فالشك ضروري لكل معرفة .

وعرفوا التجارب العلمية وقدروا أهميتها . يقول قائلهم : إن الطغرائي كان رجلا عظيما على جانب كبير من الذكاء ، ولكنه لم يعمل إلا قليلا من التجـــارب ، وهذا أمر يجعل كتابته غير دقيقة .

يقول (دارير) لقد كان تفوق العرب (المسلمين) في العلوم ناشئاً عن الأسلوب الذي توخوه في بحوثهم ، وهو الأسلوب العلمي التجريبي ، واستخدامهم هذا الاسلوب هو الذي دفعهم إلى هذا الترف الباهر في الهندسة وحساب المثلثات والفلك والطب وغيرها . ولقد حددوا أصول التجربة العلمية حين دعوا إلى تحديد الغرض من التجربة والعمل على اتباع الوسائل الخاصة بها ، والابتعاد عما هو مستحيل في نظر العقل والعناية الدقيقة باختيار الوقت الملائم لها . ونصحوا من يقوم بها بأن يكون صبوراً مثابراً ، صامتاً متحفظاً ، ولا يغتر بظواهر الأشياء .

فالعلماء المسلمون هم واضعو أسس البحث العلمي بالمعنى الحديث ، تميزوا بالملاحظة والتجربة والاختبار وابتدعوا طرقاً ،

واخترعوا أجهزة وآلات لاستخراج الوزن النوعي لكثير من المعادن والسوائل ، والاجسام التي تذوب في الماء ؛ وقد ابتدع أحدهم آلة لقياس درجة حرارة السوائل ، وميزاناً لوزن الأجسام في الماء والهواء.

٢ — في الكيمياء :

المسلمون هم أهل هذا العلم وخالقوه على يد رائده (أبو الكيميا) جابر بن حيان ، فكان أول من جعل الكيميا علما مدروساً بعد أن كانت في نظر الناس سحراً يراد به تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة ، كتحويل الرصاص إلى فضة ، والنحاس إلى ذهب . وما ابتكره المسلمون في ميدان الكيميا أكبر من أن يحاط به في هذه العجالة ، ونذكر من ذلك أن المسلمين كانوا أول من استحضر الأحماض ، وأول من استخرج ماء الذهب ، وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحامض ، وأول من قدم عن الاتحاد الكيميائي نظرية علمية تفسره باتصال ذرات العناصر بعضها ببعض ، ولم تعرف هذه النظرية في شكلها العلمي إلا على يد (جون دالتون) الانجليزي بعد جابر بنحو ألف سنة . كما استنبطوا طرقاً علمية لتحضير الفولاذ وتنقية المعادن ، وصبغ الجلود والشعر ، وإلى نوع من الورق غير قابل للاحتراق .

وما زالت كثير من المركبات الكيميائية تحمل أسماءها العربية دلالة على موضع ولادتها ومكان نشأتها . كما وضعوا عمليات التقطير والترشيح والتصعيد ، والتبلور والتذويب ، وقد أشار ابن الاثير إلى أن المسلمين استعملوا مواد إذا طلى بها الخشب منعته من الاحتراق . واستخدموها فى إقامة مراكز للرماة أثناء الحرب ، تحميهم من النار فيصيبون ولا يصابون .

ولنذكر بفخر أنه جاء فى مقدمة أحد كتب الكيمياء المكتوبة باللاتينية ما يأتى :

« إنكم معشر اللاتينيين لا تعرفون ما هى الكيمياء ، ولا ما تراكيبها ، وأصولها ، وسترون ذلك مشروحا فى هذا الكتاب الذى ننقله عن العربية » .

٣ — فى الرياضيات والفلك :

بحوث المسلمين فى هذا الميدان وكشوفهم ليست أقل من الميادين الأخرى إن لم تفقها . فمن ذلك أن المسلمين كانوا أول من أوضحوا أسس علم الجبر ومعالمه ، وأضافوا إليه ما جعله علماً مستقلا ، وإليهم يرجع الفضل فى تطبيقه على علم الهندسة .

والمسلمون هم أول من حلوا المعادلات المكعبة ، وتعمقوا

فى مباحث المخروطات وأحدثوا ثورة فى حساب المثلثات لم يقدرها حق قدرها إلا من جاء بعدهم بنحو خمسة قرون ، على حد تعبير (مسيوشال) فى كتابه « تاريخ أصول الهندسة » .

وقد أقاموا المراصد الفلكية فى أنحاء البلاد الممتدة من آسيا الوسطى إلى المحيط الاطلنطى ، وطهروا هذا العلم من خرافات التنجيم ، ووضعوا جداول تحركات النجوم ، وهم أول من عرف الاصول التى تفضى إلى الرسم على سطح الكرة ، وأول من أوجد علمياً طول الدرجة من خط نصف النهار، وقالوا باستدارة الارض ، ودورانها على محورها ، وسبقوا الغرب إلى اختراع آلة (الاسطرلاب) الدقيقه لقياس مواقع الكواكب وساعات الليل والنهار ، كما حسبوا طول السنة الشمسية ، وبحثوا كلف الشمس قبل الاوربيين ، ووضعوا جداول دقيقة فى النجوم الثوابت ، وصوروها فى مصورات ، وما زالت الاسماء العربية التى أطلقت على كثير من النجوم تتردد فى قاعات البحث ومراصده حتى الآن .

ولا تعجب حين تعلم أن الكتب التى ألفت فى زمن الرشيد حوت من المعلومات الدقيقة ما لم تخرج عنه الحقائق الحاضرة ، فقد عينوا مثلا : انحراف سمت الشمس فى ذلك الزمن ، وكان رقم

الانحراف ٢٣ درجة و ٣٣ دقيقة و ٥٢ ثانية ، وهو ما يساوى الرقم الحاضر .

كما نشأ عن رصد المسلمين للاعتدال الشمسى تعيينهم مدة السنة بالضبط . ويكفى دلالة على جهود المسلمين فى الرياضيات والفلك . ما رواه أحد الذين عاشوا فى القاهرة فى القرن العاشر الميلادى من أن مكتبتها تشتمل على كرتين فلكيتين ، وستة آلاف كتاب فى الرياضيات وعلم الفلك .

الإسلام والطب

ولقد كانت نهضة المسلمين إنسانية فى طابعها وأهدافها ، ولذا سرعان ما سخروا معارفهم وعلومهم فى خدمة الإنسانية ، وتجلى ذلك فى نهضتهم الطبية ، وتقدمهم الرائع فى هـــذا الميدان ، ثم وضعهم هذه المعارف موضع التنفيذ والتطبيق فى سبيل تخفيف آلام البشر ، ويكفى أن نستعرض هذه النواحى السريعة للدلالة على ذلك :

١ ـ ابتكاراتهم واكتشافاتهم الطبية : وذكر من ذلك أنهم أول من اكتشف الدورة الدموية ، وجاء علماء الغرب فنسبوها لأنفسهم . ثم هم أول من تـكلم عن الحصبة والجدرى ، وأول من فتت الحصى داخـــل المثانة ، وأول من سدوا الشرايين النازفة ، وأول من استعمل المخدر فى الجراحة ، كما اكتشفوا دودة الانـكلستوما ، وكان اسمها عندهم الدودة المستديرة ، كما كانوا أول من بحث فى طب الأطفال على أنه علم قائم بذاته ، كما كتبوا عن استخدام الماء البارد فى الحميات المستمرة ، ومازال الطب الحديث يأخذ بهذا الآن .

وقد خرج الأطباء المسلمون على طب الإغريق كثيراً فلم يأخذوا به دائماً، بل أثبتوا خطأه فى أحيان كثيرة مع أنه كان له منزلة التقديس . وقد زعم الطب الحديث أن أول من عالج بالتخييل ، هو الطبيب الفرنسى الشهير « شاركو » فى القرن التاسع عشر ، فقد عالج فتاة فقدت النطق وعرف من شأنها أنها شديدة الاعتزاز بشعرها . فأوهمها الطبيب أن مساعده حرق شعرها . فصاحت فجأة: شعرى .. شعرى .. وعاد إليها النطق ، مع أن المسلمين سبقوا إلى هذه الطريقة ، واستخدمها الرازى فى علاج أمير أصيب بالعجز عن القيام ، واستخدمها كثير من الأطباء المسلمين وبرعوا فيها أيما براعة .

من ذلك ما روى أن أحد المرضى أصابته حالة توهم معها أنه يحمل على رأسه جرة ويسير بها ، وكان كلما رأى شيئاً يعترض طريقه طأطأ رأسه خائفاً من أن تنكسر الجرة، ومازال أهله يبحثون له عن العلاج فى كل مكان دون جدوى ، حتى جاء طبيب حاذق ، وأمر مساعده أن يحمل جرة ويسير وراء المريض من غير أن يشعر ثم يعترض الطبيب طريقه ويطوح فوق رأسه بعصاً فيسقط المساعد الجرة على الأرض فتنكسر ويصيح المريض كسرت جرتى . ويزول بعد هذا ما كان يعانيه من المالنخوليا . وتمتلىء كتب الطب عند المسلمين وتاريخه بأمثال هذه الحالات الطريفة .

٢ ـ المستشفيات : عرف المسلمون المستشفيات العامة ، وكانت أول مستشفيات بالمعنى الكامل عرفت على وجه الأرض ، بل إن جوستاف لوبون يقول : « إنها كانت أفضل صحياً من مشافى أوربا الحديثة ، فقد كانت واسعة ذات هواء كثير وماء غزير » .

ولما عهد إلى الرازى فى اختيار أفضل مكان فى بغداد لإقامة مستشفى عليه التجأ إلى طريقة لا ينكرها عليه أصحاب نظرية المكروب الحديثة ، وذلك أنه علق قطعة لحم فى كل حى من أحياء العاصمة ، وأعلن أن أصلح حى يقام عليه المستشفى هو الحى الذى يتأخر فيه فساد قطعة اللحم المعلقه عن الاحياء الأخرى .

وكانت المستشفيات ملاجىء للمرضى وأماكن للدراسة ، وكانت الدروس تلقى حول أسرة المرضى أكثر مما تلقى فى قاعات المحاضرات ، وكان المسلمون أول من اتبع ذلك التقليد .

وقد انتشرت المستشفيات وعمت أنحاء الدولة الإسلامية ، فكان فى كل مدينة مستشفى عام على الأقل ، وهو مؤسسة حكومية يشيدها ويقوم بنفقاتها أحد الخلفاء ، أو أحد كبار الأمراء ، وكان التشابه عظيماً بين هذه المستشفيات فى كل شىء : البناء والإدارة والأقسام ، ويصح فى أكثرها وصف عام واحد . وكان كل مستشفى من هذه المستشفيات يقسم إلى أجنحة للرجال

والنساء ، ثم إلى أجنحة تبعا لنوع المرضى ، فهذا للحميات وهذا للجراحة والتجبيز ، وهـذا للحوادث العارضة ، وللاستقبال وهكذا ..

ومن أقسام المستشفى صيدلية يشرف عليها صيدلى قانونى ، وبها الأدوية والعقاقير ، والقوارير ، وتزين بالتحف كما نرى فى صدر صيدلياتنا الحديثة . ويجهز كل مستشفى بمكتبة تضم المفيد من مخطوطات كبار الاطباء .

وتنوعت المستشفيات وتعددت أغراضها، فكان منها مستشفيات خاصة بالمجذومين ، كانوا يسمونها المجاذم ، وهذه أول دور عولج فيها المجذومون علاجاً فنياً .

ومنها المارستانات ، وهى ملاجىء للمعتوهين، ومرضى العقول أنشئت أول أمرها فى العهد الأموى واستمرت العناية بها تزداد ويوقف المحسنون عليها الاموال والعقارات ، ومما يشهد بما كان فى هذه المارستانات من رعاية لتلك الطائفة ما جاء بصك الاوقاف على المارستان العتيق بحلب : إن كل مجنون يخص بخادمين ، فينزعان عنه ثيابه كل صباح ، ويحممانه بالماء البارد ، ثم يلبسانه ثياباً نظيفة ويفسحانه فى الهـواء الطلق ، ويسمعانه الموسيقى والأصوات الجميلة .

فى هذا الوقت كان المجانين فى أوربا يحرمـــون من دخول المستشفيات ، وكانوا يقيدون بالسلاسل فى البيوت الخاصة بهم ، وكانوا يموتون من الإهمال والجوع والعرى ، وكان علاجهم الوحيد الضرب .

ومن أنواع المستشفيات التى عرفهـا المسلمون المستشفيات المتنقلة ، سواء ما كان منها للإسعاف أو المستشفيات الحربية .

وكانت إدارة المستشفيات لا تفرق بين صغير وكبير ، وعظيم وحقير ، ومسلم وذمى ، بل كانوا يعالجون الجميع بدون أية تفرقة ، ويضعون قوائم للانتظار حين تضيق المستشفى بالمرضى ، وتـكون حالتهم تسمح بالانتظار .

وهذه حادثة طريفة رواها مؤلف كتاب النجوم الزاهرة تدل على ما بلغته المستشفيات العربية من رقى عجيب . وذلك أن أحـد الأجانب زار دمشق ، ولما طاف بها ورأى معالمها أعجبه مستشفاها بما فيه من نظام ورعاية وطعام ولطائف، فقصد المداعبة ، وادعى المرض ودخل المستشفى .

وأدرك رئيس الأطباء حاله وغرضه، فوصف له أحسن الأطعمة وألذها وأشهاها ، وفى اليوم الثالث وقـع على تذكرته قائلا :

لأن الضيف عندنا هنا لا يقيم أكثر من ثلاثة أيام. فكان إعجاب الرجل الزائر بذوق الطبيب وظرفه أكثر من إعجابه ببراعته، وكان إعجابه ببراعته أكثر من إعجابه بجمال المستشفى وروعته.

ولم تقتصر الرعاية على الفترة التي يقضيها المريض في المستشفى بل كان عند خروجه يعطى ثوباً ونقوداً ، وترتب له الأغذية في منزله — إذا كان محتاجاً — حتى يعود إلى سابق حاله قبل المرض.

ومن الممكن أن ندرك أي عظمة، وأي تقدم كان عليه المسلمون إذا قرأنا وصف (ماكس نورد لأحد مستشفيات باريس في تلك الفترة) حيث يقول : « يستبقى في فراش واحد أربعة مرضى أو خمسة أو ستة ، فترى قدمي الواحد في جانب رأس الآخر ، والأطفال الصغار إلى جانب الشيوخ الشيب. حقا إن هذا لا يصدق ولكنه الحقيقة الواقعة ، وهنا امرأة تئن بين مخالب المخاض ، إلى جانب رضيع يتلوى من التشنجات ، ورجل يحترق في هذيان الحمى إلى جانب مسلول يسعل سعلته الجارحة.

وتتراكم الحشرات في الدار كلها ، وتفسد رائحة الهواء في

قاعات المرضى ، حتى لا يجرؤ المرء على دخولها إلا بعد أن يضع على وجهه إسفنجة مبللة خلا ، وكانت الجثث تبقى أياماً يقاسمها المرضى الفراش .

ويستمر في وصفه وصفا تقشعر منه الأبدان ، فلا داعى لإيراده كله .

وكان هذا فى باريس ، فلنسمع وصف أحد الرحالة لمستشفى من مستشفيات القاهرة ، وهو المستشفى المنصورى . قال الرحالة : فى هذا المستشفى يبلغ عدد المرضى المقبولين والناقهين المصروفين أربعة آلاف يوميا .

وعندما يداوى المريض ويخرج ، يتناول صدقة المستشفى . وهى ثوب وكمية من الدراهم تقوم بحاجته الضرورية ، وأما غذاء المرضى فهو لحم دجاج وضأن . والأثاث والفراش والثياب تنافس بترفها مايزين قصور الخلفاء والأمراء . ويقوم بالأعمال أطباء مهرة ومفتشون قادرون ومديرون مهذبون . وخدم عاملون يتصرفون للقيام بكل حاجات المرضى . وبكلمة واحدة كل شخص عرف ماعليه من الواجبات فيقوم بها دون إهمال .

كما كانت الفرق الموسيقية تصدح فى أوقات معينة فى ردهات المستشفى ترويحا عن المرضى وتسلية لآلامهم . ومما يذكر أن عادة

إنشاد الأناشيد الدينية وترتيلها على المآذن قبل الفجر ، ترجع أصلا إلى ناحية طبية ، فقد كان الغرض منها أول الأمر تسلية للمرضى المؤرقين ، وتخفيف عناء السهر عنهم

ذلك أنهم أدركوا عظم الفائدة من تسخير قوى النفس في علاج أمراض البدن ، واشتهر بذلك منهم كثيرون ، وكان مصدر مدح وتقدير لهم . قال الشاعر في مدح ميمون بن موسى طبيب صلاح الدين الأيوبي :

أرى طب جالينوس للجسم وحده

وطب أبي عمران للعقل والجسم

بل إن أطباء المسلمين عرفوا السبيل إلى العلاج بالتحليل النفسي، هذا بينما كان (فرنسيسكوس ولاهاى) طبيب فرنسا الأشهر في سنة ١٦٩٤ م يوصي في علاج الأسنان بحمل سن من شخص ميت وللمضمضة بالبول ، ومس اللثة بزيت معجون فيه عظم الكلاب المسحوق ، وأكل معقود « العناكب » .

وقد حدث أيضاً أن صلاح الدين علم بأن في قلعة أعدائه مريضاً ومريضة استعصى علاجهما ، فأرسل أحد أطباء جيشه لانقاذهما ، ولكنه لم يقم طويلا ، وعاد بعد أيام ليحكى القصة الآتية :—

وجدت رجلا أصابه الخراج فى قدمه ، وامرأة مصابة بداء السل ، فعكفت على علاج الخراج (باللبخ) وأما المرأة فدبرت لها غذاء ، ومكنتها من الدواء الصالح لها ، ولم ينقض على ذلك إلا أمد قصير ، حتى قدم أحد أطباء الفرنجة فبادر إلى الرجل فخيره بين بتر الرجل وبين بقائها الذى ربما أدى إلى موته ، فاختار الرجل البتر ، فأمر الطبيب ببترها وأخطأت الفأس الضربة الأولى فعاودها بضربة ثانية مات الرجل على أثرها ، أما المرأة فبعد أن فحصها الفرنجى ، ادعى أنها مصابة بشيطان فى رأسها، فأمر بحلق شعرها وقصر غذائها على الزيت والتوم ، ولما زادت سوءا أخذ موسى حادة وقطع بها رأسها ، قطعتين شبه الصليب ، ثم أمر بالملح فنثر على الجـــروح « وحك به » فتوفيت المرأة على الأثر .

ثم ختم كلامه قائلا :

فسألتهم : هل بقيت لـكم حاجة؟ قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه .

٣ — تعليم الطب :

عرف المسلمون القدرات الخاصة اللازمة لتعليم الطب، وأدركوا أنه ليس كل إنسان بقادر على تعلم ذلك الفن . ومن أجل هـذا عقدوا اختبارات للقبول فى مدارس الطب ، كما نرى الآن فى أحدث

الجامعات ، وقد حددوا الصفات التي تؤهل صاحبها لتعليم الطب بأنه : ذو طبع خير ونفس زكية ، وأن يكون حريصا على طلب العلوم ، ذكيا ذكوراً لما قد تعلمه ، شجاعا ، مالكا لنفسه عند الغضب شفوقا على العليل .

وقد ذكرنا أنهم كانوا يتخذون من المستشفيات أماكن للدراسة وكانوا يعتمدون في دراسة الطب على النواحي العملية، واستخدموا الحيوانات في التجارب الطبية ، بل إن منهم من لجأ إلى تشريح الجثث واعتمد عليه في دراساته .

وقد انتشرت مدارس الطب في أنحاء الدولة الاسلامية ، واشتهر منها مدارس بغداد ، ودمشق ، وقرطبة وأشبيلية ، وقد بلغ من عظمة هذه المدارس وضخامتها أن عدد دارسي الطب وطلبته في بعضها كان يزيد على ستة آلاف .

٤ — تقاليد المهنة:

إن من يطلع على نظام ممارسه مهنة الطب يعجب أشد العجب لتلك التقاليد التي وضعها المسلمون حين يرى أن ما وصلت إليه الآن ووزارات الصحة ونقابات الأطباء لم يخرج عما وضعه المسلمون .

فقد كان على «المحتسب»(١) «أن يأخذ على الطبيب عهد أبقراط قبل مزاولته المهنة » وكان يحلفهم ألا يعطوا أحـدا دواء مضرا ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ، ولا الرجال الدواء الذي يقطع النسل ، ويغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى ، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار . . . وكان أستاذ الطب يستحلف تلميـذه الطبيب المبتدىء مخـاطبا إياه بهذا القسم :

« برئت من قابض أنفس الحـكماء ، وفياض عقول العقلاء ، ورافع أوج السماء ، مزكي النفوس الكلية ، وفاطر الحركات العلوية ، إن خبأت نصحا ، أو بذلت ضرا ، أو تلبست بمـا يغم النفوس وقمه ، أو قدمت مايقل حمله ، إذا عرفت ما يعظم نفعه ، وعليك بحسن الخلق بحيث تسع الناس ، واستفرغ لمن ألقى إليك زمامه ما فى وسعك ، فإن ضيعته فأنت ضائع ، وكل منكما مشتر وبائع والله الشاهد على وعليك ، فى المحسوس والمعقول ، والناظر إلى إليك والسـامع لما تقول ، فمن نـكث عهده فقد استهدف لقضائه سبحانه ، إلا أن يخرج من أرضه وسمائه » .

كما ذكروا أن على الطبيب أن يجتهد غايته فى معرفة المرضى ويسأل عن كل ما من شأنه أن يدله على الصواب، ثم يكتب الدواء

---

(١) يشبه سلطة النيابة العمومية فى العصر الحاضر .

ونظام الطعام ، وكل مايراه من إرشادات ، ويسلم نسخة للمريض وأخرى لذويه فإن شفى فللطبيب أجرته وكرامته،وإن مات قدموا النسخة التى معهم من تشخيصه لكبير الأطباء ، فان رأى تقصيرا أو تهاونا من الطبيب المعالج حكم عليه بالدية .

كما كان هناك مفتشون للتأكد من أن الطبيب عنده جميع آلات الطب كاملة مما يحتاج إليه فى تخصصه .

كما كانت هناك اختبارات يجريها هؤلاء المفتشون من آن لآخر للاطباء المزاولين للمهنة وللصيادلة وكان كل منهم يمتحن حسب تخصصه والفرع الذى يزاوله .

وكثيرا ما كانت تجرى تلك الاختبارات بصفة مفاجئة ، فقد شاع مرة أن الصيادلة يتهاونون فى تحضير الأدوية ويغشونها فحدثت عملية تفتيش عامة وسريعة نفى على أثرها كل من ثبت عليه غش أو تلاعب ، وثبت الباقون ، وأعلن ذلك على النـاس ليكون درساً لكل خائن .

وقد حدد على بن رضوان — أحد كبار الأطباء — الصفات التى يجب أن تتوافر فى الطبيب بما يلى :

١ — أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء جيد الرواية ، عاقلا ذكورا ، خير الطبع .

٢ - أن يكون حسن الملبس ، طيب الرائحة نظيف البدن والثوب .

٣ — أن يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشيء عن أمراضهم.

٤ — أن تكون رغبته فى إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الاجرة ، ورغبته فى علاج الفقراء أكثر من رغبته فى علاج الأغنياء .

٥ — أن يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة ، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء و لأموال التى شاهدها فى منازل المرضى فضلا عن أن يتعرض لشيء منها .

٦ — أن يكون مأمونا ثقة على الارواح ، لا يصف دواء قتالا ، ولا يعمله ، ولا دواء يسقط الجنين ، يعالج عدوه بنية صادقة ، كما يعالج حبيبه .

كما كان من أخلاق الاطباء المسلمين السعى إلى العلم دائماً ، وعدم الانقطاع عن الدرس مهما بلغت منزلتهم . روى عن ابن المطران أنه كان يغلب عليه الزهد بنفسه والتكبر حتى على الملوك إلا إذا حضر مجلس العلم ، فكان إذا اقترب نزل عن جواده ونحى عنه تابعه وخادمه ، وتقدم يحمل كتابه وقلمه فى خضوع ، ولا يرى عليه ذلك إلا فى هذا الوقت .

٥ — منزلة الاطباء :

لقد حظى الاطباء بالمنزلة العظمى فى قصور الخلفاء والحكام من غير نظر إلى جنس أو دين ، فقد كانوا يجلون الرجل لعلمه وفضله ، ويعرفون له قدره ومنزلته ، ولا يغض من ذلك كونه يهوديا أو مجوسياً فارسيا أو يونانيا .

ويكفى أن تعلم أن آل بختيشوع السريانيين النساطرة ظفروا بمنزلة فى بلاط الخلفاء العباسيين ، جعلت الرشيد وهو فى الموقف بمكة يدعو ويطلب فى الدعاء لجبريل بن بختيشوع . مما جعل بعض مرافقيه يعجب من دعائه لغير المسلم ، ولكن الرشيد يجيبهم بما يؤكد منزلة هذا الطبيب العالم .

بل كان الرشيد يقول : كل من كانت له حاجة فليخاطب بها

جبرائيل لأنى أفعل كل ما يسألنى فيه ويطلبه منى ، فكان القواد والكبراء يقصدونه فى كل أمورهم .

وأبلغ فى الدلالة على علو تلك المنزلة أن ابن القفطى المؤرخ أحصى المرتبات والهدايا والمنح التى قدمت لأحد الأطباء فى مدة خدمته ، التى بلغت ثلاثة وعشرين عاما ، فوجدها (ثمانين وثمانية ملايين من الدراهم) وهو ما يوازى بالاسترلينى مليونين ونصف من الجنيهات .

٦ — أثر الطب الإسلامى فى الغرب :

رغم المحاولات الدائبة من مؤرخى الغرب وأساتذته لإنكار فضل الإسلام على الحضارة العالمية ، ورغم مؤامرات المستشرقين لتشويه دور المسلمين الخالد نحو التراث الإنسانى ، ورغم تلك الخرافات التى يروجها الأفاكون باسم العلم ، أعنى بها خرافة العقلية الآرية (الأوربية) وفضلها على العقلية السامية .

برغم كل ذلك ، فإن الحقيقة كانت أكبر من أن تحجب تماماً كما يحاول صبيان إخفاء نور الشمس بإثارة التراب والغبار . ومن هنا وجدنا كثيراً من مؤرخى العلم الأوربيين يعترفون بأثر المسلمين وفضلهم ، لا فى الطب فحسب ، بل فى كل نواحى المعرفة .

يقول (كلوفادير) من مؤرخى فرنسا وأدبائها « أن هزيمة العرب فى بواتيه قد أخرت المدنية الغربية ثمانية قرون إلى الوراء فلو ظفر المسلمون يوم بواتيه لحملوا مدنيتهم إلى الغرب، ولما طالت أيامه فى الجهل المطبق »(١) .

ويقول (جوستاف لوبون) «كلما تعمق المرء فى دراسة المدنية العربية ، تجلت له أمور جديدة ، واتسعت الآفاق أمامه ، وثبت له أن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة ، وأن العرب هم الذين مدنوا أوربا فى المادة والعقل والخلق . ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه فى العلم يثبت له أنه ما من أمة أنتجت مثل ما انتجوا فى هذه المدة القصيرة التى كتب لملكهم قضاؤها» .

إلى أن يقول : « والعرب أول من علموا العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » (٢)

هذا عن أثر المسلمين الحضارى بصفة عامة ، أما فى مجال الطب فقد زرع المسلمون الايمان بالانسان والثقة فيه ، ومن ثم إعطاء

---

(١) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٥٣ .

(٢) جوستاف لوبون : النفسية السياسية .

الجسد حقـــه من العناية ليكون قويا سليما . ومن هنا بدأت المدارس الطبية الأوربية تنهل من طب المسلمين وتقدمهم ، مثل مدرسة (سالرنو) التى هيأ لهـــا قربها من صقلية المسلمة فرصة الاستفادة من طب المسلمين وعلمهم ، مما جعل المؤرخين يجمعون على أنها دعامة من دعائم النهضة العلمية فى أوربا ، بل رائدة النهضة الأوربية وركنها الأساسى .

كذلك جامعة (مونبيليه) بفرنسا وجامعة (بادوا — أو بادوفا) . فكلها كانت مراكز التقاء بين طب المسلمين والطب الغربى .

ونذكر هنا شهادة أحد علماء الغرب فى العصر الحديث ، فقد قال مدير جامعة فينا فى حفل تخريج دفعـة عام ١٩٦٢ م ، وكان الأول فيها مسلما من جمهورية مصر العربيه :

« إننا نحتفل بمجد من أمجاد العلم الذى كان للعرب فيه الفضل الأول ، إن العرب لم يحضروا إلينا ليتسولوا منا على العلم ، بل ليأخذوا قليلا مما أعطونا من العلوم ، وخاصة فى الطب ، إن هـذا الطبيب المصرى يعيد إلينا ذكريات ابن سينا» (١) .

---

(١) جريدة الأهرام ١٩٥٦/٨/١٢

ولعل من الطريف أن أشير هنا إلى أن مايقوله غنا الغربيون اليوم دون ندفعه الآن، فقد نظرنا إليهم مثل هـذه النظرة من قبل، حين كانت الجولة لنا والدنيا معنا. أعنى أننـا كنا نعى ما نحن عليه من تقدم وازدهار، وما هم عليه من تأخر وانحطاط.

قال القاضي صاعد الطليطلي يعلل تأخر الشماليين (الأوروبيين):

« إن إفراط بعد الشمس عن مسامتة رءوسهم، برد هواءهم وكثف جوهم، فصارت لذلك أمزجتهم باردة، وأخلاطهم فجة فعظمت أبدانهم. وابيضت ألوانهم. وانسدلت شعورهم، فعدموا بهذا دقة الأفهام، وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة ونشأ فيهم العمى والغباوة »(١).

ولـكن ألست معى فى أن نظرة قاضينا صاعد الطليطلي فى تلك القرون الأولى أقرب إلى روح العلم من نظرتهـــم الآن. حيث يعلل تأخرهم بأثر البيئة والمناخ. وقد نجد لهذا سندا من العلم الحديث.

أما هم فيعميهم التعصب ولا يجدون أمامهم من تفسير إلا الدم والدين.

---

(١) طبقات الأمم ص ٨ و٩ وتاريخ العرب لفليب حتى ص٢٨٣

٧ — أطباء العرب :

لقد تخرج فى مدارس الطب الاسـلامية أجيال ، أدوا أعظم الخدمات وأجلها للانسانية ، ونستطيع أن ندرك ضخامة هـذه الأعداد حين نعلم أن عدد الأطباء فى مدينة واحدة من المـدن الاسلامية وهى مدينة بغداد بلغ فى القرن الثالث الهجرى ٨٦٠ طبيبا عدا أطباء الخليفة (١)

ولمع من ذلك أسماء مازالت تعلأ سماء الطب ، وتتردد فى قاعاته أمثال ابن سينا والرازى ، والفارابى ، وابن زهر ، وعلى بن عيسى وابن رضوان ، ثم الزهراوى الذى سنفرد له هـــذا البحث فى الصفحات الآتية .

(١) ابن أبى أصيبعة ، جزء أول ص ٢٢٢ .

الاسلام فى الاندلس

بيئة الزهراوى

فى عام ٩٢ هجرية كان نور الاسلام قد عم الشمال الافريقى كله ، وتم استقراره فيه ، وبدأ شعاع منه يعبر المضيق إلى أوروبا فيضىء دنياهم ويشرق على نفوسهم ، فتهفو إليه القلوب ، وترنو إليه الأبصار ، وتأتى الرسل والوفود إلى حكام إفريقية يعلنون أنهم مفوضون من قومهم لدعوتهم إلى أوربا لاخراجهم من الظلمات إلى النور .

وكان أن عبر طارق بن زياد (مولى موسى بن نصير) المضيق إلى أوربا فى رحلة من أطهر الرحلات التى عرفها التاريخ . ودخلت الأندلس عهداً جديداً من النور تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ولم يضيع الأندلسيون وقتاً ، فانطلقت قواهم المعطلة بأقصى

ما تستطيع بمجرد أن فكها الاسلام من أغلالها . وتعاقبت الدول والحكام ، وبقى طابع الأندلس كما هـو ، سعى فى سبيل العلم والحضارة حتى أصبحت تنافس للشرق فى كل النواحى ، وتبذه فى كثير منها .

وصارت منارة من أعلى منارات العلم ، بل أعلاها . يقول صاحب (صناجة الطرب) : إن مدارس الأندلسيين كانت على غاية من الإتقان ، فقصدها أهالى أوربا فى القرون الوسطى ، وقرأوا العلم فيها ثم تزودوه منها إلى بلادهم ، ففى سنة ٣٦٠ هـ (٨٧٢ م) أمر هرعوث رئيس دير مارى غالن جماعة من رهبانه يدرس اللغة العربية لتحصيل معارفها ، وكان الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لا مزيد عليه ، وأشهر من تعلم العلم فى هذه المدارس هو البابا سلبيستروس الثانى ، طاف بقسم كبير من أوربا طالباً المعارف حتى دبت قدمه فى الأندلس ، فرتع فى مدارس أشبيلية وقرطبة ، وصرفت رغبته إلى العلوم حتى تنصب باباً فشاد للعلم مدرستين فى إيطاليا وريفر ، وأدخل إلى أوربا معارف المسلمين .

ومن ثم ثارت الحمية فى أهل إيطاليا وفرنسا وجرمانيا وإنكلترة فطلبوا الأندلس من كل فج عميق ، وتناولوا المعارف من أهلها .(١)

(١) أصول المعارف (صناجة الطرب فى أخبار العرب) ص ٤٤٣ .

وكانت قرطبة هى المركز لتلك النهضـــة العلمية العمرانية الرائعة ، فقد كانت مدة ثلاثة قرون أكثر مدن العالم القديم نوراً ، وكانت حضرة ملوكها وقصور خلفائها . لكثرة عنايتهم بالعلم وحرصهم على استجلاب العلماء إليها من كل فج وصوب ، أشبه بمجامع علمية ، وقاعات خزائن كتبهم كأنها دور حكمة فيها معامل كبيرة غصت بالنساخين ، والمجلدين ، والمذهبين ، والنقاشين .

ومن خزائن كتبهم ما كانت جرائد أسمائها تستغرق عشرات المجـلدات .

وبلغ عدد الكتب فى مكتبة قرطبة العامة نحو أربعمائة ألف مجلد (٤٠٠٫٠٠٠) .

وكانت جامعة قرطبة من أعظم جامعات الأرض ، تقرأ فيها العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والكيماوية (١) .

وكانت الزهراء « ضاحيتها العظمى » من عجائب أبنية الدنيا أنشأها أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٧ بتصرف .

أحـد ملوك بني أمية بالأندلس ، بالقرب من قرطبة في أول سنة ٣٢٦ هـ ؛ وهي من أهول ما بناه الإنس وأجله خطراً ، وأعظمه شأناً .

وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثاً : فثلث للجند ، وثلث مدخر ، وثلث ينفقه على عمارة الزهراء . وكانت جباية الأندلس يومئذ خمسة آلاف ألف دينار وزيادة .

وقد أمر بقطع شجر الجبل الأسود المحيط بها وغرسه تيناً ولوزاً ، ولم يكن منظر أحسن منها ولا سيما في زمان الأزهار ، وتفتح الأشجار وهي بين الجبل والسهل (١) .

في هذه البيئة نشأ الزهراوي : أبو القاسم خلف بن عباس .

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٥ و ١٠٣ بتصرف .

الزهـــــراوى

الزهراوى أحد رواد الطب والجراحة ، ويكتب اسمه فى أوربا بطرق مختلفة ، وعلى هذا فهو يسمى البلكاسس — أبو الـكاسس — السروى — أكارانى — الزهراوى — زاهر فيوس — الـكارافى(١).

ذكرت كتب التراجم والأعلام أن اسمه أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى ، وأضاف بعضها القرطبي (٢).

مولده ووفاته : وليس غريباً أن نضع مولده ووفاته جنباً إلى جنب لأننا إذا رحنا نبحث التاريخ الذى ولد فيه أبو القـــاسم لا نجد أحدا عنى بتسجيل مولده بالتحديد ، شأنه فى ذلك شأن أعلام هـــذه العصور الذين أهمـــل أمرهم فى بدء حياتهم . حيث لم يكن أحد يدرى ما سيكون لهم من مجد فى مستقبل حياتهم ،

---

(١) الدكتور صلاح العفيفى : أبو القاسم الزهراوى .

(٢) هدية العارفين ج ١ ص ٣٤٨ .

وقد يعين تاريخ الوفاة بعض الشيء، على تحديد الفترة التي عاشها الزهراوي .

فنحن أمام اضطراب عجيب بلغ أقصـــاه في تاريخ ميلاده ووفاته .

فصاحب أصـول المعـارف ص ٤٣٨ يذكر أنه ولد في القـرن الخامس للهجرة (الحادي عشر الميلادي) ويلجأ إلى هذا التعميم البستاني [١] أيضا فيقول : ولد في الزهراء قرب قرطبة في القرن الحادي عشر الميلادي . أما المراوي فيحدد تحديدا قاطعا يقول : ولدفي ٩٣٦ م أو ١٠١٣ م بأسبانيا، ويقول أيضا : وكان الزهراوي هو والوزير عيسى بن إسحق الطبيبين النابغين في العلوم والمعارف وكان بينهما دار ندوة . وكان كلاهما الطبيب الخـاص للأمير عبد الرحمن الثالث [٢] . ورحنا نبحث عن الأمير عبد الرحمن فوجدنا مدة حكمه كانت بين ٣٠٠ هـ إلى ٣٥٠ هـ . [٣] وفي نفح الطيب [٤] أن الأمير عبد الرحمن الناصر هو الذي أنشأ الزهراء في سنة ٣٢٥هـ

---

(١) دائرة المعارف جزء ج ٢ ص ٣١٤ .

(٢) فضل العرب على الجراحة ص ٢ .

(٣) تاريخ الأندلس السياسي والعمراني . ص ١٩١ .

(٤) جزء ٢ ص ٦٥ و ١٠٠ و ١٠٣ بتصرف .

أما الدكتور أسعد الحكيم (١) فيشير إلى هذا الاضطراب فى تاريخ مولده فيقول : ولد فى الزهراء قرب قرطبة وقد اختلف فى تاريخ ولادته ويغلب أن تكون فى أوائل القرن الحادى عشر . وصاحب الطب العربى (٢) يقول : إن الزهـــراوى كان طبيب الخليفة الحكم وتوفى عام ١٠١٣ م وفى مجلة المجمع العلمى للدكتور أحمد عيسى (٣) أنه توفى سنة ٥٠٠ هـ — ١١٠٦ م .

والدكتور زكى على (٤) يقول إنه ولد فى ٩٢٦ ميلادية . والدكتور صلاح المفتى يقول أنه ولد ٩٣٦ م أيضاً (٥) . ويقول أنه اشتهر سريعاً وأصبح الطبيب الخاص لعبد الرحمن الثالث .

وفاته :

وتواريخ وفاته ليست أقل اضطرابا من تاريخ مولده ، على

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى تاريخ الطب العربى .

(٢) أمين أسعد خيرالله ص ١٧٢

(٣) مجلة المجمع العلمى العربى مجلد ٦ ص ٤٤٦

(٤) رسالة الطب العربى ٣١

(٥) أبو القاسم الزهراوى ص٢

غير المتوقع ، ففى جذوة المقتبس [1] أنه توفى بعد سنة ٤٠٠ هـ ، وفى معجم المطبوعات توفى سنة ٤٠٤ هـ [2] وفى معجم المؤلفين [3] توفى سنة ٤٠٠ هـ ، ١٠٠٩ م وفى هدية العارفين توفى سنة ٤٢٧ هـ [4] وفى كشف الظنون [5] توفى سنة ٤٠٠ هـ ، وأما المفيفى فيقول توفى سنة ٥٠٠ هـ [6] ، وكذلك الدكتور زكى على [7] يقول توفى سنة ٥٠٠ هـ .

وممن ذكره بالميلادى دائرة المعارف الانجليزية [8] ١١٢٢ م والمفيفى نفس المصدر ١١٠٦ م وخير الله ١٠١٣ [9] .

ونحن هنا أمام اختلاف بين فمنهم من يقول توفى فى مطلع

---

(١) ص ١٩٥

(٢) ص ٨٣٣

(٣) جـ ٤ ص ١٠٥

(٤) جـ ١ ص ٣٤١

(٥) جـ ١ ص ٣٤٨

(٦) أبو القاسم الزهراوى ص ٢

(٧) رسالة الطب العربى ص ٣٢

(٨) عن الزهراوى : فضل العرب على الجراحة ص ٢

(٩) الطب العربى ص ١٧٢

القرن الخامس الهجرى ومنهم يقول توفى فى مطلع القرن السادس ٥٠٠ هو منهم من يقول ٢١٢٢ م ، ١١٠٦ م ، ١١١٣ م .

وإذا أردنا أن نحقق هـــذا الاختلاف نضع أمام أنظارنا الملاحظات الآتية : —

١ — إن الأمير عبد الرحمن الثالث (الناصر) تولى الحـكم فى الفترة ما بين ٣٠٠ — ٣٤٠ هـ أى ٩١٢ — ٩٦١ م .

٢ — إنه أنشأ الزهراء سنة ٣٢٥ هـ .

٣ — إن الحميدى صاحب جذوة المقتبس وهو ممن كتب عن الزهراوى وذكر تاريخ وفاته قائلا (توفى بعد الأربعمائة) .

نقول إن الحميدى هذا توفى سنة ٤٨٨ هـ .

٤ — أن ابن حزم من علماء الأندلس يقول عن الزهراوى : وقد أدركناه وشاهدناه [١] . وقد عاش ابن حزم من ٣٨٤ — ٤٥٦ هـ .

إذا وضعنا ذلك أمام أعيننا فإننا نقول بما يلى :

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ١٦٧

(ا) نجزم بخطأ من قال إنه توفى سنة ٥٠٠ هـ وهما الدكتور زكى على والدكتور صلاح العفيفى . وبالتالى من قال توفى سنة ١١٢٢ م ، ومن قال سنة ١١٠٦ م ، وهما دائرة المعارف الإنجليزية والدكتور صلاح العفيفى .

إذ لا بد أن يكون توفى قبل ٤٥٦ هـ وهى سنة وفاة ابن حزم

(ب) يبقى عن تاريخ وفاته من قال ٤٠٠ هـ وما حولها ومن قال ١٠١٣ م . وهذا قول مؤرخى العرب المتقدمين وعبارة ابن حزم تشعر بصحته .

(جـ) وأما من ناحية الميلاد فما أثبتناه من تاريخ وفاته ٤٠٠ هـ تقريباً — ١٠١٣ م تقريباً يقطع بخطأ من قال ولد فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى وكذلك الخامس الهجرى .

(د) ومن ناحية أخرى لابد أن يكون مولده بعد بناء الزهراء فى أول ٣٢٥ هـ .

(هـ) وعلى هذا لم يبق أمامنا إلا من قال بأنه ولد فى ٩٣٦ م وهى تقابل ٣٢٥ هـ .

ونلاحظ أن المتقدمين من مؤرخى العرب لم يذكروا تاريخ ميلاده .

(و) وأما كونه طبيباً للامير عبد الرحمن الناصر كما يقول الدكتور الهراوى والعفيفى فلا يعقل إلا على فرض أنه نبغ فى سن أقل من العشرين ولذا نميل مع خـــير الله [1] الذى يقول إنه كان طبيباً للحكم . (توفى الحـكم سنة ٣٦٦ هـ) .

ونخرج من هذا بأن الزهراوى ولد سنة ٩٣٦ م — ٣٢٥ هـ وتوفى ١٠١٣ م — ٤٠١ هـ وهذا بالتقريب .

---

(١) الطب العربى ص ١٧٢

منزلة الزهراوى

فى هذه الفترة الزاهرة بالأندلس الناهض نشأ أبو القاسم الزهراوى ، فكان ثمرة ناضجة لهذا الغرس الطيب الذى وضعه الاسلام (ورعاه) أتم رعاية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الزهراوى لم ينل حظه من الدراسة والتقدير فى البلاد العربية والإسلامية ، لا فى القديم ، ولا فى الحديث .

فكل ما ذكر عنه فى كتب الأعلام والتراجم والتاريخ نتف قليلة لا تغنى ، ولا تكفى لإلقاء الضوء على هذا العلم ، وتلك القمة الشامخة من قمم العلم الرائعة ، وكان الأجانب أسبق إلى هذه الدراسات فى حركة الاستشراق ، ومنهم من خلصت نيته ، ومنهم من تعمد التشويه والتزييف .

آثار الزهراوى :

والاضطراب الذى عانيناه فى تاريخ ميلاده ووفاته ، نعانيه

أيضاً فى ذكر آثاره ومؤلفاته ، فلم نجد إحصاء أو شبه إحصاء لكتبه ، فنهم من يقول : له تصانيف كثيرة منها :

١ — التصريف لمن عجز عن التأليف .

٢ — كتاب فى أمراض النساء .

٣ — كتاب فى استحضار الأدوية .

٤ — كتاب فى الكيل والموازين .(١)

ومنهم من يقول: أشهر كتبه التصريف لمن عجز عن التأليف .

ومنهم من يقول : ألف التصريف ، ولا يشير إلى غيره .

ومن كل هذا نخرج بأن البستانى والأعلام وصناجة الطرب ذكروا كتاب المكاييل والموازين مع أنه عند الآخرين جزء من التصريف .

فايعده بعضهم كتابا يراه الآخرون جزءا من كتاب .

ونحن من جانبنا نكاد نجزم بأن له أكثر من مؤلف غير التصريف، فى أكثر من فرع من فروع للمعارف الإنسانية ، فقد

---

(١) البستانى وصناجة الطرب والأعلام

كان « فيلسوفا كبيراً ، وعالما رياضياً ، وعالما فلكيا ، وطبيباً وكيمائياً »(1)

والحميدى وهو أقرب المؤلفين إلى عصره ، بل يكاد يكون معاصراً له يقول :

وعلمه الذى لم يسبق فيه هو علم الطب(2) ، أى أنه يعرف فى أكثر من فن .

ولعل آثاره ذهبت مع ماذهب حين اجتاحت الأندلس المسلمة السمحة جحافل أوربا المتبربرة المتعصبة ، وقضت على آثارهم العلمية والحضارية .

وأخلد كتبه ذكرا التصريف .

كتاب التصريف وأين يوجد :

يقع هذا الكتاب فى ٣٠ جزءاً وقد انتقل من الأندلس إلى جهات كثيرة ، وتداولته الأيدى بالطبع والترجمة . والنسخ والتقسيم ، بجانب الاستفادة والدراسة ، ولذا نرى الاختلاف يبلغ مداه بين من يذكر هذا الكتاب وأجزاءه .

---

(1) خير الله : الطب العربى ص ١٧٢
(2) جذوة المقتبس ص ١٩٥

فالمراوى يقول : إن الجـــزء الحادى عشر هو الخاص بالجراحة(١) .

ويقول غيره : إنه الأخير ، ويقول آخر : إنه الثانى عشر . ويقول آخر : إنه الثامن والعشرون .

والذى نخرج به من كل ما قرأنا أن الإجماع منعقد على أن الـكتاب يقع فى ثلاثين جزءاً ، وأن أهم جزء فيه هو الجـزء الخاص بالجراحة .

ترجمات الـكتاب :

ولقد أصبحت نسخ هذا الـكتاب من الندرة بحيث أن باحثاً مثل الدكتور حسين الهراوى يقول :

ولقـد أخذنا نبحث عن اسم أبى القاسم بين المؤلفين ، ونتسـاءل عن كتبه فلم نجدها فيما تتداوله الأيدى ، ثم بحثنا فى دار الـكتب السلطانية ، والمـكتبات الخصوصية فـلم نعثر على شىء منها .

وفيما كنا نقلب فى آثار جدنا المرحوم الدكتور عبد الرحمن

(١) فضل العرب على الجراحة ص ٦

الهراوى ، وقع فى يدنا كتاب بعيد العهد ، بعيد الطبع ، موسوم بعنوان (التصريف) لمؤلفه أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوى وهو الجزء الحادي عشر من ثلاثين جزءا من الكتاب كله[1].

وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية مبكرا ، غير أنه لم يعرف بالضبط تاريخ السنة ولا اسم المترجم الذى نقل الكتاب[2]

إلا أن المؤكد أن (المسيو جيراردى جيريمون) ترجم فى القرن العاشر الجزء الأخير المتعلق بالجراحة[3] (لاحظ أن الهراوى يقول أن الجزء الحادى عشر هو الخاص بالجراحة).

أما الدكتور أسعد الحكيم فيقول : إن الكتاب الثلاثين هو أجل ما كتب ، وخيرة ما ابتدع فى الجراحة إلى ذلك العهد ، نقله (جيراردى كريمونا) إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، فى مدينة طليطلة • ومنه نسخة فى المكتبة الأهلية فى باريس رقم ٧١٢٧[4] .

---

(١) نفس المصدر

(٢) المرجع السابق

(٣) الهراوى أيضا

(٤) مجلة المجمع العلمى العربى مجلد ٦ ص ٤٤٦

وفى مكتبة باريس (١٤٣٩٠) رأينا الجزء الثالث ، وترجمة الجزء الأول والثانى ، تحت عنوان باللاتينى هو (ليبر نيوريكاتك تنن بركتيكا) أى النظريات المجردة لا العمليات للزهراوى .

والجزء ٢٨ تحت عنوان (ليبرسرفيتورس) وقد طبعت هذه الأجزاء . وترجم الجزء الخاص بالعقاقير والأقربازين Therapoutic = العلاج (تيرابوتيك) وقد ظهر التصريف بأكمله تحت اسم الزهراوية وموجود برقم ٧٠١٦ من القسم اللاتينى .

ومما يدل على أن مجموعة الكتاب كانت كاملة فى القرن الرابع عشر أن « كلوديس » الذى يعد عظيما فى الجراحة أخذ عنه مايعد أساساً لما كتبه هو .

وفى القرن الخامس عشر رأينا مقتبسات من الزهراوى عند طبيب طليانى (فسارى) أو (فيودى جراديليس) وكان فى أكثر مواضعه يستشهد بكتاب الزهراوى الخاص بالأطعمة أو الأغذية .

وفى القرن الخامس عشر أيضا نشر الطبيب الطليانى (سندس دى أردوز بريس ده بيزارو) كتابا خاصا بالسموم فى كل صفحة

منه اسم أبى القاسم ، ويدلنا ذلك على أن المؤلف كان علك ترجمة التصريف كاملة . ومما يزيد التأكيد بأن (سندس) هذا كان علك التصريف كاملا أن كثيرا من أقواله مأخوذ من الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٢ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ .

أما الجزء الثانى ففى العمليات (براتيك) وأما ٣ ، ١٥ ففى الأدوية المركبة ، وهذا هو السبب الذى أطلق من أجله على الكتاب اسم Grand Indotrear (جراند انتيدوتير) لأن معظمه فى مركبات الأدوية .

وفى سنة ١٦٠٩ م طبعت مكتبة شنك (لايبلاغنك) هذا الكتاب .

وقد ظهرت ترجمتان لكل التصريف فى القرن السابع عشر ، ولكن لا نعلم إن كانتا تامتين أولا .

وإلى سنة ١٩١٧ لم يكن لدى مكتبة باريس سوى نصف فى القسم العبرى .

وللمكتبة البلينية هى أسعدها حظا ، لأنها تحتوى

على الـكتاب كاملا تحت نمرة ٤١٤ ، ٥١٥ وهاك بيان محتويات الأجزاء .

الجزء ٢٦ يحتوى على نظام الطعام فى حالات الصحة والمرض وعند أحمد ابن البيطار (فيودى جراديليس) .

والجزء ٢٧ يحتوى على الأدوية البسيطة والأغذية مرتبة على حروف المعجم (شن سوب) ترجم هذا الجزء بالعبرية فى مارسليا فى القرن الثالث عشر .

والجزء ٢٩ يحتوى على تحويل الموازين وعلاقتها بالمقياس .

وهذه الأجزاء المتقدمة خطية .

أما المطبوع فإليك بيانه

جزء النظريات والعمليات ، وهو الأول والثانى ، أما الأول فيحتوى على النظريات أو عموميات فى الطب وفيه ١٦ فصلا ، والجزء الثانى يحتوى على العمليات فى الأمراض من الرأس إلى القدم ، إلا الفصول الأخيرة فيحتوى فصل ٢٦ تدبير الأطفال ، وفصل ٢٧ تدبير المسنين ، وفصل ٢٨ فى الروماتيزم ، وفصل ٢٩ فى الدمامل والخراريج ، وفصل ٣٠ فى السموم ، وفصل ٣١ فى الأمراض

الظاهرة (الجلدية) وفصل ٣٢ فى الحميات ، وجزء ٢٨ تحضير الأدوية البسيطة ، ترجمه إلى اللاتينية إبراهام اليهودى ، وقد رد أحد المسلمين أو اليهود النسخة العبرية إلى اللغة العامية ، وأحد الأدباء حوله إلى اللاتينية . واسم هـــذا الجـــزء باللاتينية (سرفيتوريس) وهذا العنوان ليس لهذا الجزء فى الحقيقة بل هو للاجزاء السالفة الخاصة بالأدوية المركبة وهو ما سماه أهل القرون الوسطى (جراند انتيدوتير) وكتاب (سرفيتوريس) طبع مراراً ، وهذا هو عنوان الطبعة المحفوظة بباريس بنمرة ١٤٧١ .

وفى باريس نسخة خطية برقم (١٠٢٣٦) أظهرت لنا شكل القوالب التى فيها نقوش تظهر على وجوه أقراص الأدوية التى اخترعها الزهراوى .

وفيها نسخة أخرى عربية عبرية تحت نمرة ١٢١٣ .

ويقول (لكلارك) ونظن أن هناك نسخة عربية فى متحف انجلترا ، فقد وجدنا به تحت نمرة ٩٨ عنوان كتاب منسوب إلى الزهراوى ، وهو خاص بتحضير المقاقير ، وابتدأ فيه على طريقة (سرفيتوريس) حيث قال : اعلم أن الأدوية ثلاثة أنواع : معدنية

أو نباتية أو حيوانية . ولقد قرأنا هـذا النص بعينه فى نسخة باريس العربية العبرية.(١).

والدكتور أحمد عيسى يقول :

له تصانيف مشهورة أفضلها (كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف) وهو مؤلف من ثلاثين كتابا . أول كتاب منها فى العموميات الطبية ، ثم يأتى درس الأمراض على اختلافها بالترتيب . ويمتاز الكتاب الحادى والعشرون بفصل خطير بحث فيه أبو القاسم فى تفتيت الحصاة داخل المثانة ، وكيفية صنع هـذه العملية ذات الشأن (لاحظ أن غيره يقول إن الحادى عشر هو الخاص بالجراحة) .

ثم يشير إلى ترجمة (جيراردى) للجـزء الخاص بالجراحة ، ويذكر أنه الثلاثون ، ويصفه بأنه : كان دليل جراحى أوربا فى عصر النهضة ، وكتاب التدريس فى الجامعات المختلفة حتى مطلع القرن السابع عشر ، وأهم قسم فيـه هو

---

(١) الدكتور حسن المراوى : فضل العرب على الجراحة .

القسم الأخير لأنه يحوى جميع المعلومات الجراحية فى زمانه بطريقة واضحة [1].

والدكتور زكى على يصف الجزء الخاص بالجراحة قائلا : هو أول كتاب موضح بالصور والأشكال فى الجراحة ترجم إلى اللاتينية على يدى (جيراردى كريمونا) وهو مقسم إلى ثلاثة أقسام (يختلف التقسيم هنا عن تقسيم الذين ذكرناهم من قبل) أولها وأطولها يبحث فى الكى، الذى شاع استعماله فى الطب العربى، والقسم الثانى يبحث فى الجراحة العامة وعملياتها، ووصف أسلحتها، والقسم الثالث فى الخلع والكسور، ورسوم الآلات فى هذا الكتاب تبلغ نحو مائتين، وكان الزهراوى يذكر بجوار كل موضع مادلت عليه تجاربه [2].

ويذكر الدكتور العقيقى الكتاب قائلا : وأكبر مؤلفاته كانت دائرة معارف طبية مكونة من ٣٠ مجلدا وكانت تسمى التصريف. وقد ترجم إلى اللاتينية والايطالية مؤخرا، وقد

---

(١) الدكتور أحمد عيسى : مجلة المجمع العلمى العربى. آلات الطب والجراحة عند العرب.

(٢) الدكتور زكى على : رسالة الطب العربى ص ٣١، ٣٢.

وقد أصبح هو المرجع الأساسى فى أوربا فى القرن الحادى عشر إلى الخامس عشر .

ودائرة المعارف الطبية هذه تشمل إلى مدى كبير كل فروع الطب ، والمجلد الاول هو مقدمة سماه المؤلف النظريات ونظرة عامة إلى الطب . وينتقل الدكتور العفيفى إلى المجلد الحادى عشر فيقول : إنه عن الجراحة ، موافقا الهراوى ، ثم يذكر أن المجلد السادس عشر عن التغذية ، والمجلد السادس والعشرين عن الاغذية فى الصحة والمرض ، والمجلد الثامن والعشرين عن علم الصيدلة ، وللمواد الطبية ، والمجلد التاسع والعشرين عن الأوزان والمعايير .

وقد توصلت دار الكتب المصرية إلى طبعة عربية لاتينية موحدة للمجلد الحادى عشر (الخاص بالجراحة) تحت رقم ٩٣٥ طب . وقد اطلع عليه الدكتور العفيفى ، وذكر محتوياته وهى لا تخرج عن الذى ذكره الدكتور زكى على[١] .

وقبل أن نترك الحديث عن التصريف ندع أحد معاصرى

---

(١) أبو القاسم الزهراوى

الزهراوى يبدى رأيه فيه ، فقد قال ابن حزم عالم الاندلس المشهور فى مجال إثبات الفضل لأهل الأندلس وتعداد مؤلفاتهم وآثارهم : (وكتب التصريف خلف بن عباس الزهراوى ، وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا إنه لم يؤلف فى الطب أجمع منه ، ولا أحسن للقول والعمل فى الطبائع لنصدقن)[1].

(١) نفح الطيب جـ ٤ ص ١٦٧ بتحقيق محى الدين .

جهود الزهراوى فى الطب

يعجب المرء حين يريد تحديد مكان الزهراوى فى تاريخ الطب. فكيف لفرد واحد أن يشغل هذه المكانة ويملأها بكل عمق وطول، وعرض؟، ثم هو مع ذلك يكاد يكون مغمورا غير معروف لأحد من أبناء هذا العصر، فلم ينل حظه من الدراسة والتعريف والتقدير للآن.

ومما يؤلم أن الغربيين كانوا أكثر تقديرا له، ومعرفة بفضله فأشادوا به فى كتبهم، وأعطوه بعض ما يستحق، وكادوا أن يحلوه المنزلة التى تليق به(١)

فلم يكن وحيد عصره وفريد دهره، على حد تعبير مؤلفى ذلك الزمان ومؤرخيه، وإنما كان سابقا لهذا العصر وذلك الأوان.

فحين يتحدث فى كتابه عن جراحة العظام والتجبير والخلع

---

(١) قال الدكتور الهراوى لم نعثر على شيء تقريبا فى الكتب العربية عن الزهراوى وكتابه، ووجدنا نتفا قليلة من الكتب الانجليزية والفرنسية خلال كتاب مسيو «لكلارك» تاريخ الطب عند العرب.

والكسور ، يقرر « أن هذا الفرع من الجراحة قد صار فى أيدى العوام والجهلة بالطب ، ويشير إلى وجوب قصر مزاولته على الأطباء »(١) أليس هذا هو ما نشكو منه الآن ؟ أليست هذه هى صيحات أطبائنا بعد أكثر من ألف عام ؟

والزهراوى أول من وصف الاستعداد الخاص فى بعض الأجسام للنزيف Haemophilia (هيموفيليا) فقد شاهد عدة حوادث نزيف فى عائلة واحدة (٢) .

وقد ظلت الجراحات والتشريح على حال من الإهمال عند الغربيين ويحتقرها العرب كما كانوا يحتقرون كل صنعة يدوية(٣) حتى جاء أبو القاسم الزهراوى ، فحطم بحديد جرأته تلك القيود ويدد بساطع حجته تلك الأوهام ، ونهض بالجراحة من سافل محطها ، إلى أسمى ما يليق بها من الكرامة والرقى ، فخالف بعزيمته المألوف وخرج على المعتاد المعروف ، وحث على درس التشريح

(١) الدكتور زكى على ص ٣٢

(٢) خير الله : الطب العربى ص ١٧٢

(٣) وقد لاحظ ذلك الزهراوى فقال فى الجزء الحادى عشر أن السبب الذى لا يوجد من أجله صانع ماهر فى عمل اليدوى أنه ينبغى لصاحبه أن يرتاض قبل ذلك فى علم التشريح .. الخ .. ولذلك قال أبقراط . إن الأطباء بالاسم كثيرون ، والحقيقيون قليل جداً ، من (الزهراوى)

وطالب بتشريح للموتى ، وقال : إن جهل التشريح جر إلى نتائج وخيمة ، ومن يطالع كتابه لايتمالك عن الاعتقاد بأنه قد شرح الجثث هو نفسه ، لأن وصفه الدقيق لإجراء العمليات المختلفة لايمكن أن يكون نتيجة نظريات فقط(١).

فقد كان المثل الأعلى للجراحة عند العرب فى القرون الوسطى وكان بيته دار ندوة يحضرها ذوو المكانة من الاختصاصيين ، وكان بيته مفتح الأبواب للسائلين ، وطلاب العلم وطالبي التداوى بالليل والنهار .(٢)

(١) خير الله : الطب العربى .
(٢) فضل العرب على الجراحة . الهراوى .

الزهراوى والجراحة

وهو أول من استحدث رسوم الأعضاء والهيكل العظمى فى كتبه.(١)

وهو أول من رسم الآلات ، وبين طريقة استعمالها فى المؤلفات الطبية ، وقد أورد منها فى كتابه حوالى مائتى شكل (٢) .

وهو أول من وصف طريقة إخراج الأجسام الأجنبية من داخل المرىء بواسطة إسفنجة متصله بخارج الفم بخيط متين(٣) .

وهو أول من أصلح طرز عمليات البتر ، وكان من قبله يبترون القسم المعتل فقط ، أما هو فقد أوصى بالقطع فى الأنسجة السالمة عن بعد من الأنسجة المريضة ، كما هى الطريقة المتبعة اليوم .

---

(١) أحمد بن عيسى والهراوى

(٢) العفيفى وزكى على .

(٣) أحمد عيسى ، مجلة المجمع العلمى العربى ، الجزء السادس

كما بحث أيضاً فى الالتهابات المتقيحة ، فأوصى بخزع الخراجات القريبة من المفاصل فى بادىء ظهورها .

كما أوصى باستئصال جميع الأجزاء المريضة فى الالتهابات العظمية وذلك خير ما توصى به الجراحة الحديثة (١)

ويذكر له بالفخر أنه أوصى بأن لا يندفع الطبيب فى العمليات الجراحية الصعبة دفعة واحدة .

كما كان الزهراوى أول من استعمل ربط الشريان لإيقاف النزيف قبل (أمبروز باريه) الفرنسى ، ومع ذلك تنسب إليه ظلماً .

وهو أول من استعمل (السنارة) فى استخراج (٢) البوليبوس Polyps

وقد كان دائما ينبه قراءه فى كل موضوع إلى اختيار العمليات ووجوب اتخاذ الاحتياطات اللازمة .

كما كان أول من وصف العمليات الجراحية فى كتابه وطريقة إجرائها والاحتياطات اللازمة لها ، وفى كل فقرة كان يضيف

---

(١) أسعد الحكيم : مجلة المجمع العلمى العربى الجزء الخامس

(٢) الدكتور زكى على : رسالة الطب العربى ص ٣٣

الطرق التى يجرى بها عملياته، وملاحظاته إلى معلوماته السابقة، ويكتب التقارير عن الحالات التى يسجل فيها انتصارا جديداً . يشهد بذلك الفصل الذى عقده عن استخراج السهام(١)

وهو أول من وصف عملية الحصـــاة عند النساء عن طريق المهبل، وكانت تعمله رئيسة للمرضات تحت إشراف أحد الأطباء(٢)

---

(١) الغفيق والهراوى

(٢) الهراوى فى فضل العرب على الجراحة »

مما انفرد به الزهراوى من العمليات الجراحية

* جراحة الشرايين :

كان يستعمل هذه العملية فى قطع الشريان ، الذى فى الأصداغ لمداواة الصداع ، وسننقل وصف أبى القاسم لهـا ، لأنه أول من ربط الشريان كما تقدم : —

اسلخ الجلد برفق حتى تصل إلى الشريان ، ثم تلقى فيه سنارة وتجذبه إلى فوق حتى تخلصه من الصفافات التى تحته من كل جانب فإن كان الشريان رقيقاً فتلويه بطرف السنارة ، ثم تقطع منه جزءاً بقدر مايتباعد طرفاه ولا يحدث نزيفاً، فإنه إذا بتر وانقطع لم ينزف الدم . ثم استفرغ من الدم من ٣ إلى ٦ أواق ، وإن كان الشريان عظيما فينبغى أن تربطه فى مكانين بخيط مثنى قوى ، وليكن الخيط من إبريسم أو من أوتار العود ، لئلا يسرع إليها العفن قبل التئام الجرح ، فيحدث النزف ، ثم اقطع مابين الرباطـين ، وإن شئت فاكوه ، ثم احش الموضع بالقطن البالى ، وضع الرفايد المحكمة .

وأول من استعمل هذه الطريقة هو أبو القاسم ، وهى لا تزال مستعملة إلى الساعة .

* والزهراوى أول من أدخل الإبريسم أو الحرير فى ربط الشريان ، وهو أول من أدخل أوتار العود فيها ، وهى مصنوعة من جـدار أمعاء الغنم ، وهو مايتخذ منه الخيوط الجراحية فى الوقت الحاضر .

* عملية استخراج الحصى : —

هذه العملية هى التى ابتدعها أبو القاسم ، ننقلها من الكتاب الموجود بأيدينا (١) ص ٢٨٢ ، وطريقته فيها أن يجلس المريض ويضغط مساعد الجراح على مثانة المريض ، وهو بين يدى الجراح نفسه ليحصر الحصوة عند عنق المثانة ، ويضع الجراح أصبعه فى مقعدة المريض ، ويضغط الحصى أيضاً ، ثم يشق فيما بين المقعـدة والخصيتين ، لا فى الوسـط ، ولـكن إلى جانب الإلية الأيسر ، ويـكون الشق على نفس الحصاة ويضغط على الحصوة بالإصبع إلى الخارج .

---

(١) الزهراوى « فضل العرب على الجراحة »

ويكون الشق موروبا أو عريضاً من الخارج وضيقاً من جهة المثانة ، وتخرج الحصوة بالضغط .

ثم قسم الحصى على حسب شكلها لا تركيبها ، فوصف ذوات الزوايا ، وذوات الحروف ، وللملساء ، ثم قال : فإذا كانت الحصاة كبيرة جدا فتحايل على كسرها بالكلاليب ، حتى تخرجها قطعا .

وتعرف عملية أبي القاسم اليوم باسم (خرق كوكس) .
وتستعمل فى مواضع أخرى غير الحصوة بقليل من التصرف .

* كذلك عملية الشق في إخراج ما يسقط فى الأذن مما لا يزال استعماله إلى اليوم ، وبالمثل طريقة غسيل الأذن بالمحقن .
وهذا المحقن كان يصنع من النحاس أو الفضة :

* جراحة العيون (علاج الشعرة)

١ — الكى بالنار .

٢ — الكى بالدواء المحرق .

٣ — القطع والخياطة .

٤ — بقصب الغاب ، وتلك مستعملة إلى اليوم .

أما القطع والخياطة فذلك أن تقطع من فوق ظـاهر الجسم شكل ورقة الآس ، ومن باطنه شقا واحـــدا ، ثم تخيط التى فى الظاهر . والفرق بين العمليتين القديمة والحديثة ينحصر فى عمق الشق ، وفى أن يقطع شبه ورقة الآس فى الغضروف بالجفن دون الجلد .

* الظفرة وعلاجها : أن تدخـل إبرة تحتها ، وترفعها ، ثم تدخل تحتها شعرة خيل ، ثم اسلخ بالشعرة جانب الظفرة الذى يلى الحدقة ، كأنك تنشرها بالشعرة إلى آخرها ، ثم اقطع الباقى أى الذى ليس على الحدقة بمبضع ، ويمكن سلخها بالمبضع الأملس وهذا الأخير هو المستعمل إلى اليوم .

وهذه العملية لا يزال استعمالها إلى اليوم ، وغاية ما فى الأمر أن لا تقطع الظفرة كلها بل اقطع الجزء الموجود على القرنية وألوه تحت الملتحمة . والنقطة التى تستحق العناية هى طريقة القطع أولا والمبضع ثانيا وهو لا يزال مستعملا إلى الساعة .

* علاج السبل فى العين : هى عروق دموية تمر فوق القرنية

تلقط بالصنارة، ثم تقطع كل واحد بالمقص، وتعمل هذه العملية الآن بالمشرط.[1]

* الجرد: طريقته واستعماله وآلته الحديثة تماماً.

* الـكمية: (المدة الموجودة خلف القرنية) ـ تشق القرنية بمبضع رقيق فى الاكليل، وهذه العملية بنصها وفصها فى الكتب الحديثة.

* فى علاج الماء النازل فى العين: خـــذ مقدحا وادخله فى الاكليل حتى الماء ثم أكبسه أسفل فإن المريض يرى من ساعته، وهذه لا تستعمل إلا فى النادر لأن لها مضاعفات جمة، ولـكن المقدح لا يزال من الآلات الحديثة.

* اللحم الزايد فى اللثة ويسمونه أيضا Polyps أبيوليس يقطع ويكحت مكانه أو يكوى.

* جراحة الأسنان — الخلع بالـكلاليب، ونشر الأسنان الزائدة، وتشبيك الأسنان المتحركة بخيوط من ذهب.

* فى قطع اللوزتين: يكبس بآلة، ثم تغرز صنارة فى اللوزة

---

(١) الهراوى: فضل العرب على الجراحة. نقله من كتاب الزهراوى نفسه.

وتشد إلى خارج الفم، ثم تقطع بآلة كالمقراض ، وهذه عملية حديثة أيضاً ، ولكن جرى كثير من التعديل فى شكل الآلات .

* ومما يستحق الذكر أن المؤلف كان يروى تجاربه الشخصية ، وما كان يقابله من الصعوبات ، وكيف ذللها .

* وكما يستأصل أورام اللوزتين كذلك يستأصل أورام اللهاة على الطريقة عينها .

* الأورام :

غير (الميكروسكوب) اليوم وجه الطب من القديم إلى الحديث ، فتقسيم الأورام اليوم (ميكروسكوبى محض) ، أما فى زمن المؤلف فكانت تختلف باختلاف محتوياتها من سائل أو يابس والجهة من الجسم التى فيها المرض ، فإن الورم الذى يحدث فى الرأس قسم بذاته غير الذى يحدث فى المعدة ، والورم الذى يحدث فى جسم لحمى غير الذى يحدث فى مفصل . ومن الأورام ما يبط أو يشق ، ومنها ما يقطع عليه قطع كورقة الآس . أو شكل هلالى أو ذو ثلاثة شقوق ، أو ما هو مستدير . وينبغى إذا كان الورم عظيما أن يفرغ ما فيه من الماء أو الصديد على عدة مرات ، لاسيما إن كان المريض ضعيفاً أو مسناً ، ويحشى مكانه بالقطن البالى ، فإن عرض نزيف يغسل بالماء البارد أو الخل ، وبعض الأحيان بالخمر ، وينهى

عن استعمالها لأنها محرمة(١)

* قطع القصبة الهوائية : تشق تحت ثلاث أو أربع دوائر من القصبة بالعرض بين غضروفين فى الصفـــاق ، ويخيط الغضروف فى الجلد .

* علاج نتوء الشرايين أو Aneurism الأنيورويزم . كان يستأصله بين رباطين ، وكذلك كان يستأصل سرطان الثدى بشق هـــلالى .

ويعالج فتاق السرة بإدخال الأمعاء إلى البطن بعد فتح (الثرب) Pretoneum ثم عقده بأنشوطة ، وربط أى شريان يعوق العمل ، ثم يشد الورم فى أربعة مواضع ، ويترك حتى يتعفن ، ويسقط من نفسه .

وكان يستعمل طريقة البزل فى الاستسقاء بإدخال أنبوبة طرفها مبرى كبرية القلم بعد شق جدار البطن ، وهذه لا تزال مستعملة إلى الآن .

---

(١) الدكتور حسين الهراوى : فضل العرب على الجراحة . ملخصا من كتاب الزهراوى الخاص بالجراحة .

* كيفية شق Hydrocele (الأدرة المائية) أو القيلة ـ طريقة الشق وإخراج الخصية كأحسن الطرق المعروفة الآن ، وإنما كان أبو القاسم يفضل قطع الصفاق بأ كمله وهذا لـكيلا يعود الماء ، وذلك ما يوصى به أكثر الجراحين ، أما عملية الفتاق الجراحيـة فهى أن تشق عليها ، وتدخل الأمعاء إلى البطن ، ثم تستأصل كل ما هو أمامك خصية وأوردة ، وما أشبه ذلك بعد ربطها من جهة البطن ثم يعد الجرح بالرفايد بعد الربط الوثيق ، ولـكن هذه العملية قلما كانت تعمل والمفضل هو طريقة الكى التى شرحناها آنفا(١).

* كما يصف الزهراوى فى كتابه استئصال العقد اللمفاوية الرقبية المزمنة(٢).

* كما كان أول من حول مجرى البول إلى الشرج فى الرجال ، وإلى المهبل فى النساء(٣).

ومن كل ما حواه كتاب الزهراوى عن الجراحة ، يمـكن أن نقول إننا وجدنا الموضوعات الآتية أكبرها فائدة :

---

(١) المرٰوى .
(٢) أحمد عيسى ، مجلة المجمع العلمى .
(٣) العفيفى .

استسقاء الرأس　　　　زوائد لحمية الأنف

عملية استئصال اللوز　　　　إزالة الأورام المختلفة بالحنجرة

فتحة القصبة الهوائية

اللسان والأورام التى تحـدث أسفلها

إصلاح صدور الرجال التى تشبه صدور النساء

إصلاح التضخم الزائد لصدر المرأة

نزف الشريان مع ربط أطراف النهايتين للشريان المصاب

علاج السرطان

علاج الاستسقاء ، بزل استسقاء البطن

علاج الأظافر الغائرة فى أصابع الرجل

علاج الأطفال الذين يولدون بدون مجرى بولى خارجى ظاهر أو مجرى ضيق ، أو المجرى فى غير موضعه .

الختان والأخطاء الشائعة فى عمليته ، علاج النقص الحاد فى البول

تحويل مجرى البول إلى الشرج عند الرجال وتحويل مجرى البول إلى المهبل عند النساء .

الفتق المائى　　　　علاج امتداد كيس الخصية

علاج الدوالى	علاج الخنوثة
علاج نزف البواسير	علاج الناسور الشرجى
علاج الحروق	جراحة الرأس والرقبة
الجروح الباطنية	البتر
علاج الأصابع المتشابكة	استخراج الأسهم
قطع الأوردة	الحجامات[1].

وكان أول من فرق بين الجراحة وغيرها من المواضيع الطبية ، وجعلها أساساً قائماً على درس التشريح[2].

وقد وصف وضع (والشر) وصفاً دقيقاً .

وقد أجرى عمليـــة تفتيت الرأس فى الأجنة ذات الرأس الضخم[3].

* كما كتب عن الأورام الرحمية وعنق الرحم وتقرحه ،

---

(١) العفيفى : أبو القاسم الزهراوى .

(٢) خير الله : الطب العربى ص ١٧٢ .

(٣) زكى على : رسالة الطب العربى ص ٣٣ .

كما ذكر التوليد بآلات الوضع[1].

هذه نماذج من جهود الزهراوى فى سبيل الجراحة . وهى كما ترى جهود جبارة خارقة للعادة بالنسبة لتلك العهود السحيقة .

(١) خير الله : المصدر السابق .

الزهراوى والكى

توسع أبو القاسم فى استعمال الكى ، وأشار إلى أهميته ، فشاع بفضل تعضيده له ، وكان يستعمله فى أكثر الأمراض ، ويفضله على المشرط مخالفاً بذلك تعاليم اليونان (١) .

فى الأورام على كافة أنواعها ، وفى كل عضو من أعضاء الإنسان. وللكى أدوات كثيرة منها النار ، ويعتبرها أبو القاسم أفضلها ، لأنها جوهر مفرد ، ولا يتعدى فعله العضو المكوى ولا يضر عضوا آخر متصلا به ، على عكس الدواء المحرق ، فإنه يتعدى فعله إلى ما بعد الأعضاء ، وربما أحدث فى العضو مرضاً تعسر مداواته وربما قتل .

وهذا يطابق تماما التفسير الحديث الذى يقول : إن هذه الأدوية المحرقة ، قد تمتص إلى جميع أجزاء الجسم ، وقد تكون بداية تعفن (٢) .

---

(١) خير الله

(٢) المراوى

وقد كان الزهراوى أول من قسم الحروق إلى درجات ثلاث :

الأول : أن تحرق الجلد فقط .

الثانى : أن تحرق الجلد وشيئاً من اللحم (الشحم والأنسجة التى تحتها) .

الثالث : أن تحرق كل شىء حتى العظم (١)

وقد وصف استعمال الكى للاجزاء الآتية وأمراضها :

وجع الأذن	فى السكتة المزمنة
الفلج	الصرع
الملاخوليا	الماء النازل فى العين
الدمع المزمن	استرخاء جفن العين

فى القمرة (وهذه طريقة حديثة)

فى أمراض الرئة

فى السعال	فى ضيق التنفس

فى أمراض المعدة والأمعاء

فى الرأس

(١) العفيفى

فى الأنف	الحلق
الطحال	الكليتين
عرق النسا	البواسير
الناسور	الرحم

وعالج بالكى أيضاً تقلصات الوجه الاختلاجية المؤلمة ، وكان يكوى فيها خلف الصدغ أو عند ملتقى الشفتين (١).

كما عالج بالكى الجزام الدرنى (٢).

كما استعمل الكى فى السرطان .

وأحسن مواضع الكى كان يستعمله فى الآكلة أى Gengren (الغنغرينة) وهو فساد يسعى فى عضو ويخشى على الباقى ، بل على الحياة ، منه .

وكذلك استعمل الكى فى الزوائد التى تحصل فى القدم .

وأجل استعمال هو إيقاف النزيف الحادث من قطع شريان ،

---

(١) أسعد الحكيم : مجلة المجمع العلمى

(٢) المراوى : فضل العرب على الجراحة .

وطريقته أن تضع أصبعك السبابة على الشريان المقطوع ، وتحصر الدم تحت أصبعك ، ثم تكوى المكان بعد رفع أصبعك عنه .

وهذه طرق إيقاف النزيف التي كانت مستعملة :

١ — بالكى .

٢ — بقطع نفس الشريان فتتقلص أطرافه .

٣ — بأن تربطه بالخيوط ربطاً وثيقاً .

٤ — بوضع الرفايد .

٥ — بالضغط بالأصبع .

٦ — بالماء البارد .

وكل هذه مستعملة إلى الآن إلا الثانى منها .(١)

وقد كانوا يستعملون فيه كل ضروب الصبر والجلد مما لا يتصور أن يتحمله إنسان ، فإن خراج الكبد كانت طريقة العلاج المستعملة فيه ، أن تحرق بمكواة جميع الطبقات المكونة لجدار البطن حتى تصل إلى الكبد ، ثم تحرق نفس الكبد ، حتى يخرج الصديد وقد يضطر الجراح لتغيير عدة مكاو إذا بردت ، وقد

(١) الهوارى : نفس المصدر السابق

نصح الزهراوى بضرورة حصول التصاقات بين الكـبدوالبريتون قبل فتح خراج الـكبد ، حتى لا يتسرب الصـــديد إلى البطن ويميت المريض .

وبالطبع مثل هذه العملية تـكون خالية من أى تعفن . وتستعمل نفس هذه الطريقة فى استخراج ماء الاستسقاء(١)

(١) المراوى والعفيفى

الزهراوى وجراحة العظام

وتبلغ عبقرية أبى القاسم حداً يجعله لا ينسى فرعاً آخر من فروع الجراحة ، هو جراحة العظام أو التجبير كما كانوا يسمونه .

ففى القسم الثالث من المجلد الخاص بالجراحة توجد موضوعات كثيرة ، فهو يتكلم عن الكسور والخلوع فى الأجزاء الآتية من الجسم :

كسور الجمجمة	الأنف
الفك السفلى	الترقوة
منطقة الكتف	الضلوع
العضد	الساعد
اليد والأصابع	الفخذ
الساق	القدم
أصابع القدم	الكسور المصحوبة بجروح

علاج التشوهات   علاج الأعضاء التي تضمر بعد التئام الكسور

الخلوع بالنسبة للفك   الرسغ

الترقوة   الأصابع

إصابات العمود الفقرى[1]

خلع الحوض

خلع الركبة   خلع المفصل وأصابع القدم[2]

كما ذكر الشلل الذي يحدث عقب كسر العمود الفقرى[3] .

وتكلم عن الخلع المزمن وطرق علاجه وهو أول من اشتغل بهذا الموضوع[4] .

(١) و (٢) المغني : أبو القاسم الزهراوى .

(٢) زكى على : الطب العربي « رسالة » .

(٣) أسعد الحكيم : مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد السادس .

الزهراوى والآلات الطبية

ليس بغريب أن نعقد فصلا خاصاً بهذا العنوان ، فإن عناية أبى القاسم بالنظر فى الآلات واستحداث كثير منها ، مثل صنارة السليلة الأنفية (الوليبس)[1] وكذلك اخترع منظار للمهبل[2] ، كما له الفضل فى إحداث كلاليب تفتيت الحصوة ، وما أدخله من تحسينات على الآلات ، وما ذكره عن معادنها وخاماتها ، كل ذلك يدل على نبوغ عجيب ، وعبقرية فذة ، ويشهد ببراعته فى فنه .

وتقدم أن أبا القاسم كان أول من استحدث رسم الآلات الطبية ووصفها فى مؤلفاته ، وقد كانت هذه الآلات تصنع إما من الحديد أو الذهب أو النحاس .

ويختلف استعمال كل نوع باختلاف ظروفه ، فأبو القاسم كان يفضل استعمال الحديد على الذهب فى آلات الكى قائلا ، فى ذكاء متوقد وقوة ملاحظة نادرين : إن الكى بالحديد أحسن وأفضل من الذهب للأسباب الآتية :

(١) زكى على : رسالة الطب العربى ص ٣٤ .
(٢) خير الله : الطب العربى ص ١٧٢ .

١ — إذا حميت مكواة الذهب فى النار لن تعلم درجة حماوتها بسبب لونها .

٢ — ثم إنها تبرد سريعا .

٣ — وإذا اشتدت الحرارة وصهرت ذابت .

فلذلك صار الكى بالحديد عندنا أسرع وأقرب للصواب (١) .

وإذا عرضنا هذا الكلام على أحدث الطرق العلمية نجد أن أبا القاسم الذى كان يعتمد على حواسه الخمس فى استقصاء أفضلية الحديد على الذهب على حق فى قوله : إن لون الذهب يمنع معرفة درجة الحرارة التى نريدها هل هى الحمراء أو البيضاء ، مما لا يتيسر معرفته فى الذهب فى غير الظلام .

والمعروف فى الطب أيضا أن الكى يكون على درجة الحرارة الحمراء ، فإنها تكوى المكان كيا موضعيا ، فتزيل الأثر الذى نريد إزالته ، وأما البيضاء فإن المعـــادن تكون فيها كالمشرط تقطع ولا تكوى .

---

(١) الحراوى : فضل العرب على الجراحة

أما النقطة الثانية وهى أنها تبرد سريعا فمن المعلوم أن درجة حرارة الذهب النوعية هى ٣٢٤ ،٠ر — والحديد ١٩٣٨ ،٠ر — ولذا نجد أن هذا الذى كان يعتمد على حاسة النظر فقط لم يخطىء نظره فى ٨٨١٤ ،٠ر — من درجة الحرارة .

أما النقطة الثالثة : وهى الصهر فقد كفلت الطبيعة أيضا صدقها إذ أن درجة صهر الحديد ١١٠٠ والذهب ١٠٦٤ . وإنا لنعجب من قوة النظر الحادة التى مكنت صاحبها من العور بفرق ٣٦ درجة حرارة بعد الألف .

<u>أشكال الآلات</u> : كما تختلف أشكال الآلات أيضاً بسبب :

١ — اختلاف المكان المراد كيه .

٢ — اختلاف العنصر المراد الكى به .

٣ — اختلاف اتساع الكى .

فإذا كانت الأماكن ظاهرة اختلفت أشكال الآلات باختلاف شكل الجزء المراد كيه .

وهذه هى أشكال الآلات :

١ — المكواة الزيتونية لكى الرأس وللمواضع المسطحة .

٢ — للمكواة القرنيـــة فى كى الرأس إذا أريد التأثير فى العظام .

٣ — للمكواة المسمارية لكى الرأس ووجع الصداع .

٤ — المنشارية فى كى الحاجبين والأنف .

٥ — النقطة فى المواضع الضيقة .

٦ — الهلالية فى كى جفن العين عند استرخائه .

٧ — القمع فى كى النواصير .

٨ — السكينية للشفة .

٩ — مكواة الأسنان .

١٠ — ذات الثلاث شعب للرئتين .

١١ — ذات السفافيد لخلع العضد .

١٢ — مكواة المعدة .

١٣ — الميل لتدخل الكبد .

١٤ — المسمارية للظهر .

١٥ — مكواة للفتق .

١٦ — الآلات لكى سائر الأعضاء .

المشارط :

١ — المبضع لشق الخراريج .

٢ — مبضع السلخ لتشريح الجلد مما تحته .

٣ — مبضع آخر للسلخ غير حاد .

الجفت :

١ — الجفت اللطيف للأشياء التي في الأذن .

٢ — جفت آخر .

٣ — محقن فضة لحقن الأذن .

٤ — مبضع لفتح الأذن .

٥ — السنانير .

٦ — المبضع الأملس للعيون .

٧ — آلة الجرد (الكحت) .

٨ — للقدح ويستعمل لماء العين .

٩ — الكلاليب .

١٠ — قاطع اللوزة (أسنانها حادة كالسكاكين) .

١١ — جفت الحلق . .

١٢ — مسبار (أنواع) .

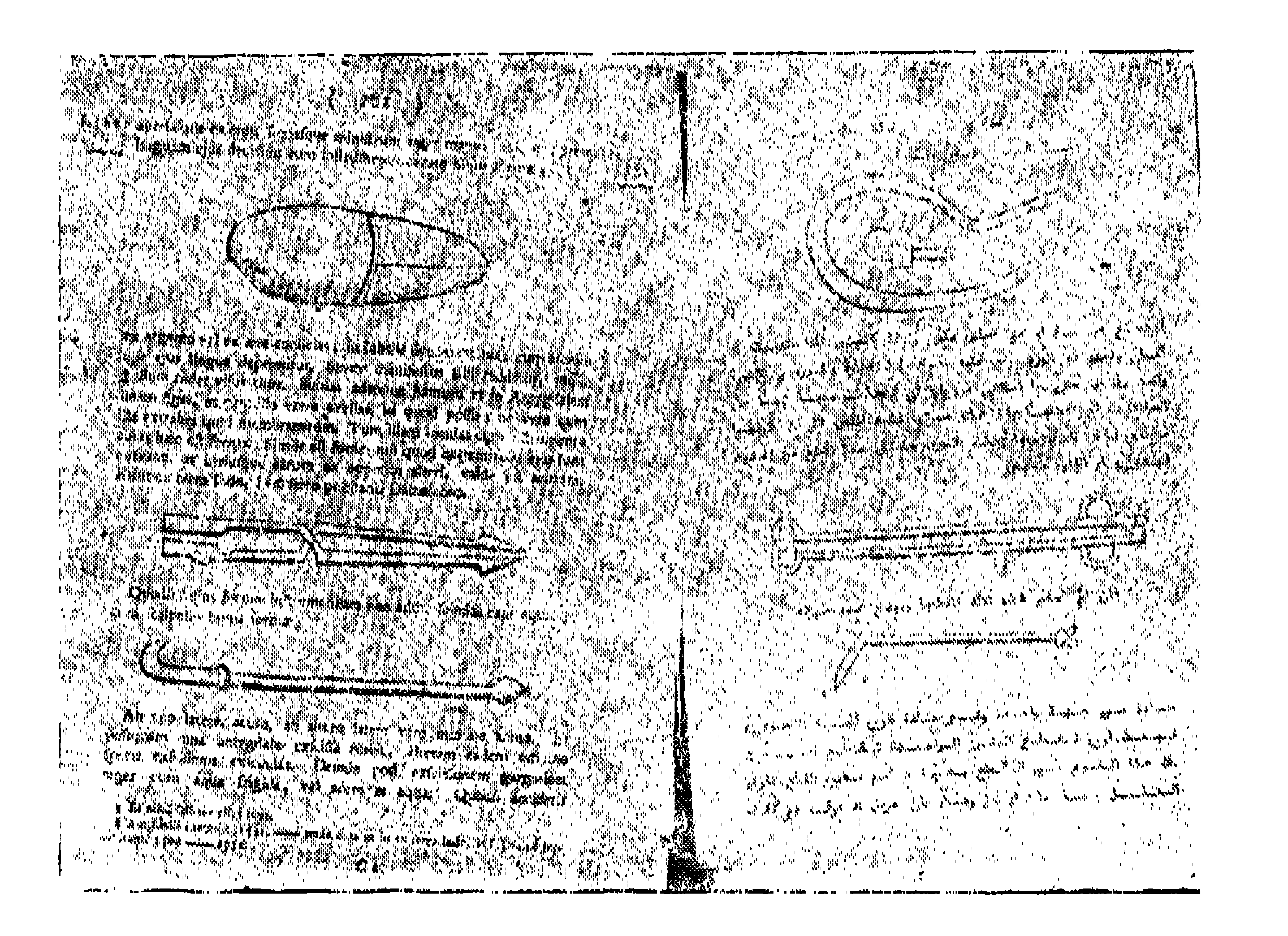
١٣ — سنانير (أنواع) .

١٤ — مشارط لسلخ الأورام[1] .

والآن نعرض فى الصفحات التالية والمقابلة نماذج من هذه الآلات موضحة بالرسم وعليها أسماؤها العربية بعبارات الزهراوى ذاتها ، وهى فى نسخة دار الكتب من التصريف .

---

(١) الهراوى : فضل العرب على الجراحة .

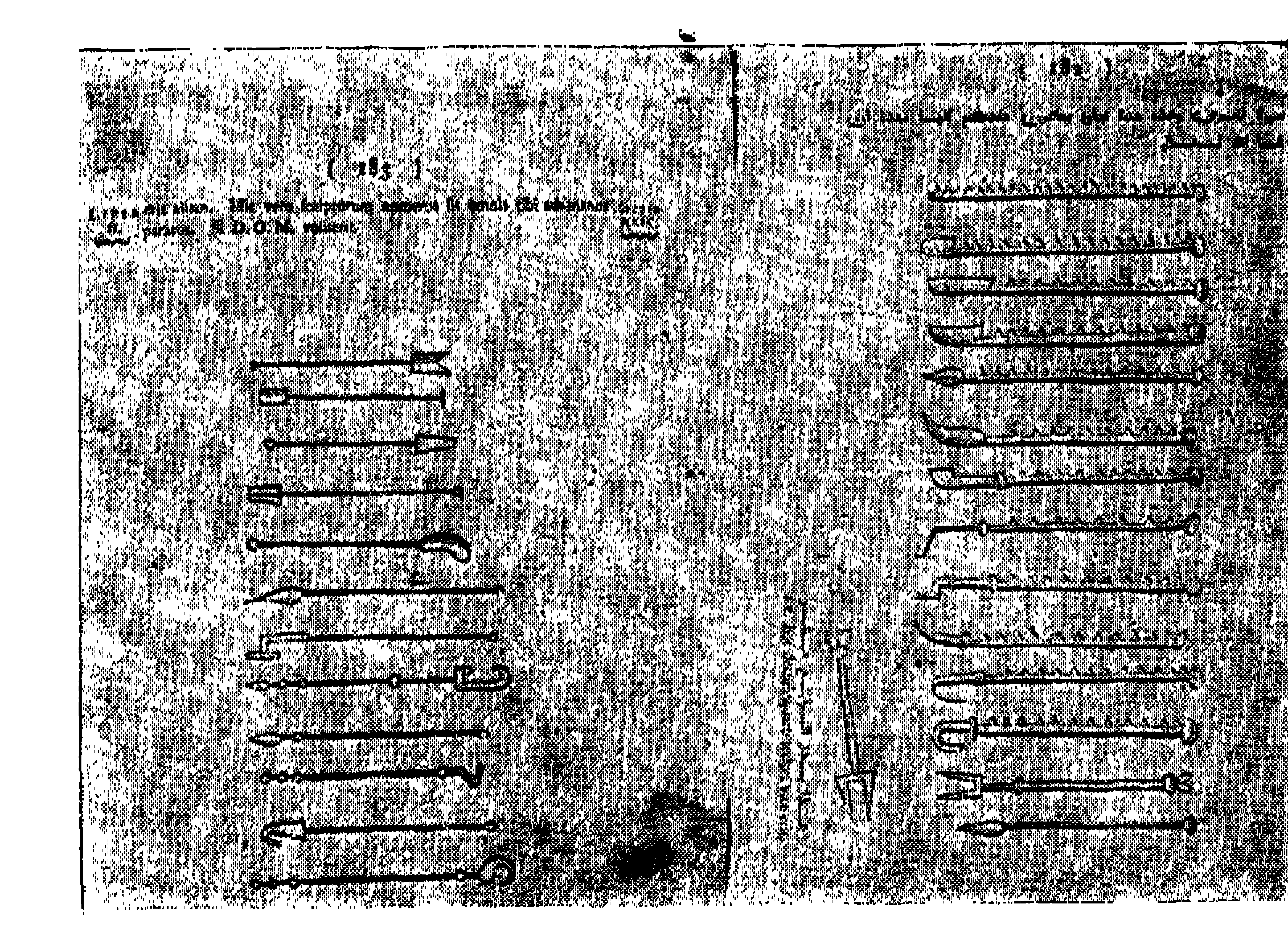


[illegible] inveſtiges eum, donec cum jam ſub digitis tuis erit, dimoveas illum paululum ad [illegible]. [illegible] in [illegible] digito tuo, [illegible] [illegible] quem velis [illegible]. Ex miniſtro [illegible] ut [illegible] cum manu ſua [illegible]. [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ad [illegible], et manu tua altera [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible], a loco ubi [illegible] [illegible]. [illegible] [illegible] utraque [illegible], [illegible] [illegible]. [illegible]

Et [illegible] in [illegible] quod eſt [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ſed ad latus ſiniſtrum [illegible], et [illegible] ſuper [illegible] [illegible]. [illegible]

[illegible]

[illegible]



SECTIO VICESIMA OCTAVA. De tumore Jecoris Cauterio perfumendo. *

QUANDO acciderit in jecore † tumor, et fuit copiosus, si tumor fuerit in cute jecoris, vel in † tunica ejus, quidam [illegible] in carne jecoris, invenies infirmum gravitatis lethiferæ et dolore [illegible] [illegible] laborantem. Quod si in tunica [illegible], cum dolore [illegible] [illegible] fortis ([illegible]). Porro [illegible] [illegible] [illegible] medicus, oportet ut infirmum [illegible] in [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] tunc [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ejus [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ad [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] Cauteri.

Hac vero ultima [illegible] non [illegible] [illegible], nisi ab illo [illegible] longa est [illegible] in arte medicinæ, et sub cujus [illegible] [illegible] morbi [illegible] in experientia multis [illegible] [illegible] [illegible] se posit ad [illegible] opus. At [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

SECTIO VICESIMA NONA. De Ustione in Pleuritide.

MEMORANT antiqui ustionem in pleuritide [illegible], per radicem Aristolochiæ longæ ad hunc modum. Facit, ut sumat ex radice Aristolochiæ longæ [illegible], [illegible] [illegible] longiorem invenerit.

* De modo [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
† [illegible] — [illegible] — [illegible]
† [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] — [illegible] [illegible] [illegible]
‡ Ad [illegible] — [illegible] [illegible]
‖ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

صورة صنارة عربية كبيرة

صورة صنارة عربية وسط

صورة صنارة عربية صغيرة

صورة صنارة كبيرة ذات الاطلاق

صورة صنارة وسط ذات الاطلاق

صورة صنارة صغيرة ذات الاطلاق

ابو القاسم والأدوية

ولم يكن الزهراوى طبيباً عالماً وأستاذاً جراحاً فقط ، بل كان مع كل ذلك عالماً بفن الصيدلة ، وله فى الأدوية المفردة والمركبة نظرات جعلت له المنزلة العليا فى هذه الناحية أيضا .

قال البستانى : وله كتاب فى استحضـــار الأدوية ترجم إلى اللاتينية فى البندقية (١٥٨٩م)م ، وتذكره دائمـا كتب الأعلام والتراجم بأنه خبير بالأدوية المفردة والمركبة (عيون الأنباء — معجم المؤلفين — جذوة المقتبس — الصلة — كشف الظنون — معجم المطبوعات) .

وليس لدينا ما يمنع من أن يكون له أكثر من كتاب غــير التصريف كما أشرنا فى فصل سابق ، ومع ذلك ؛ فنحن نرجح أن هذا الذى أشار إليه من قال بأن له كتبا فى الأدوية ليس إلا الجزء الخاص بالأدوية من التصريف ، وقد كان التصريف عبارة عن كتب لا كتاب ، كما عبر ابن حزم معاصر الزهراوى .

ويقول المراوى : إنه الجزء الخاص بالعقاقير والأقرباذين Therapeutic (ثيرابوتيك) ولقد رأينا دائما مؤلفى القرون الوسطى يحيلون القارىء على الزهراوية ، أو كتاب المركبات الأكبر Inde Treat (أنتيدوتير) .

والجزء ١٦ من التصريف هو الخاص بالأطعمة المختلفة فى الأمراض المختلفة ، وقد أخذ عنه ابن البيطار مقتبسات جمة مذكور بجانبها أنها مستخرجة من كتاب الزهراوية .

وأبلغ هذه الاقتباسات كيفية صنع الخبز المركب من أحسن أنواع القمح ، والذى يخمر ، ويكون خفيفا خاليا من الشوائب .

وفى القرن الرابع عشر استشهد دى كلوديس ، الذى يعد عظيما فى الجراحة فى كثير من المواضع بكتاب المركبات ، وقد ذكر بالاسم الجزأين ٢١ ، ٢٣ .

وفى القرن الخامس عشر رأينا طبيبا طليانيا (فسارى) أو فيودى جراديليس ، يستشهد بكتاب الزهراوى الخاص بالأطعمة أو الأغذية .

وفى القرن الخامس عشر أيضا نشر الطبيب الطليانى (سندس دى أردو وزيريس ده بيزارو) كتابا خاصا بالسموم ، وفى كل

صفحة منه اسم أبى القاسم ... وفى هذا المؤلف معلومات عن الزهراوى لا تقل عن نصفه .

وفى القرن الثالث عشر ترجم (شن سوب) الجزء ٢٧، ويحتوى على الأدوية البسيطة والأغذية مرتبة على حروف المعجم بالعبرية فى مرسيليا .

وقد طبع الجزء ٢٨ عن تحضير الأدوية البسيطة مترجما إلى اللاتينية ترجمه إبراهيم اليهودى . وقد رد أحد المسلمين أو اليهود النسخة العبرية إلى اللغة العامية وأحد الأدباء حوله إلى اللاتينية .

ولقد قسم الزهراوى الأدوية البسيطة إلى ثلاثة أنواع :

معدنية نباتية حيوانية

وفى هذا الكتاب معلومات زائدة عن تاريخ المادة الطبية ، وتاريخ الكيمياء ، والفنون الصناعية .

ولابن العوام كتاب فى الزراعة قال فيه : إنه ليس أحسن من طريقة الزهراوى فى استخراج ماء الورد ، ونقل عنه ابن البيطار فى كتابه المفردات كيفية استخراج الزيت .

ومن العجيب أن نجد الزهراوى يصف بدقة كيف يصنع قالبا من الأبنوس أو البقس أو العاج ، ينقش فيه اسم الاقراص الطبية ،

ونسخة باريس الخطية (١٠٢٣٦) أظهرت لنا شكل هذه القوالب غير أننا لم نجدها فى النسخ المطبوعة ، كذلك وجدنا فى الخطية المذكورة رسم للرشحات ولم نجدها فى المطبوع .

ولم يكتف أبو القاسم بتحضير الأدوية ، بل إنه اشتغل فوق ذلك فى كيفية حفظها ، وعين معـــدن الأوعية التى توافق كل واحد منها .

ويظن أن فى متحف انجلترا نسخة عربية من كتاب الزهراوى (الجزء الخاص بالعقاقير) تحت رقم ٩٨[١] .

ونكرر هنا ما قلناه من أن الزهراوى لم يكن طبيباً فحسب ، بل كان عالماً كيمائياً ، وفلكيا وفيلسوفا كبيراً .

(١) رجعنا فى هذا الفصل إلى الهراوى والعفيفى وزكى على وخير الله .

الزهراوى فى تاريخ الطب

يمثل أبو القاسم الزهراوى مرحلة هامة من مراحل تطور الطب وتقدمه ، بما ابتدعه فى فنونه وألوانه ، وبما حفظه وشرحه من طب الأقدمين ، شغل أبو القاسم قروناً عدة من تاريخ الطب ، وملأ طبه العالم مئات السنين ؛ فقد عاشت الدنيا عيالا على طبه منذ القرن الحادى عشر وحتى القرن الخامس عشر[1] .

وكان طبه هو الأساس الذى بنى عليه فى عهد النهضة العلمية الحديثة .

فقد كان كتاب التصريف دليل جراحى أوربا فى عصر النهضة، وكتاب التدريس فى الجامعات المختلفة بأوروبا ، كجامعة سالرنو ومونبليه وغيرهما حتى القرن السابع عشر[2] .

وقد استشهد جى دى شولياك بأقوال أبى القاسم فى الجراحة

---

(١) كامبل . عن الشفيق : أبو القاسم الزهراوى .

(٢) خير الله : الطب العربى ص ١٧٢

أكثر من مائتى مرة[1] .

وقال الأستاذ بوشون فى كتابه تاريخ الطب والمذاهب الطبية ص ٥٣٢ ما تعريبه :

إن جراحة أبى القاسم التى ترجمها حديثاً (لوسين دكران) وهى وأيم الحق مبتكرة وأهل للمديح الكثير الذى وصفها به (فبريس دكا بندانى) القائل أن أبا القاسم يعد للمثل الأعلى للعلم : إلى أن قال : وقد حيت بهذا الطبيب الجراحة العملية الخطيرة ، المندرسة من عهد بعيد[2] .

وجاء فى خطاب الأستاذ (فورغ) الجراح الحالى الشهير الذى ألقاه فى تشرين الثانى سنة ١٩٢١ م فى الاحتفال الذى عقد احتفاء بمرور سبعمائة سنة على جامعة مونبيليه ما تعريبه : فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر وضع العرب واليهود — وكان اليهود الصلة بين العرب والفرنج — فى مونبيليه أسس للمعارف الطبية ، وكانت مدارس الأندلس الطبية حافلة زاهرة كمدارس الطب فى آسيا ، وفى القرن التاسع (والصحيح [3] الحادى عشر) ظهر فى قرطبة

---

(١) المصدر السابق .
(٢) أسعد الحكيم : مجلة المجمع العلمى العربى ج ٦ ص ٥٠٣ .
(٣) سبق أن بحثنا هذه النقطة وبينا أن الصحيح أن العاشر هو ميلاد أبو القاسم .

أبو القاسم الذى أحدثت كتبه الجراحية فى جامعتنا هذه أعظم تأثير ، يدلنا عليه عليه استشهاد الأستاذ (جى دى شولياك) به أكثر من مائتى مرة(١) .

وقد كان الزهراوى رئيساً وعميداً لمستشفى قرطبة ومدرسة الطب بها ، وقد اعتاد التلاميذ من أنحاء أوربا والامبراطورية العربية الذهاب إلى قرطبة لحضور محاضراته وجولاته فى المستشفى والعيادة الخارجية ، وكذلك العمليات التى يجريها ، وكان منزله مفتوحاً ليل نهار يدخله الطلبة والاطباء والمرضى يرجون المشورة(٢) .

وقد انتشر فى أوربا انتشاراهائلا بصفة خاصه القسم الجراحى من التصريص بترجمة (جيرار دى كريمونا) إلى اللاتينية ، كما ترجم الكتاب كله أكثر من مرة إلى أكثر من لغة : إلى العبرية والبروفانسالية وغيرها .

يدرس فى أول عهده فى (سالرنا) وغيرها من مدن إيطالية ،

---

(١) أسعد الحكيم : المرجع السابق .

(٢) الدكتور حسين الهراوى : فضل العرب على الجراحة .

وحمله إلى فرنسا فى القرن الثالث عشر فريق من الأطباء الذين التجأوا إليها لأحكام سياسية .

ومنهم (روجي دى بارمة) الذى نالت مؤلفاته فى الجراحة شهرة عظيمة ، وهى لم تكن فى الحقيقة سوى انتحال أفكار أبي القاسم فى الجراحة وأعماله فيها .

ولا أرى أجل برهان على ذلك من تصريح ألفرد فرنكلين من كتابه (التنقيب عن أصول الجراحة ورقيها فى فرنسا ص٣٢) ما تعريبه : جدد أبو القاسم ذلك النابغة الرحب الجسور فن الجراحة عند العرب ، فطار ذكره فى الأقطار ، ودخلت مؤلفاته إيطاليا ، فكان فيها أبو القاسم دليل الجراحين فى أعمالهم وفى تصانيفهم . وما الجراحون الذين نبغوا فى إيطاليا بعد أبو القاسم إلا نقلة ومقلدون لهذا الرجل العظيم .

وقد نظر لهؤلاء الجراحين بعين الإعجاب ، وعدوا مجددين للجراحة على أنهم فى الحقيقة لم يزيدوا على الجراحة أقل شيء جديد (إلى أن قال) ، وقد أخذ من كتاب أبي القاسم (روجي دى بارمة) كل القواعد التى تتألف منها مصنفاته ولم يذكر مأخذها ، وانتحلها لنفسه ؛ فنال بذلك تلك الشهرة والمكانة

العظيمة(١) .

ومع ذلك التقدير الذى ناله أبو القاسم من رواد الطب وأساتذته ، إلا أن التعصب يأبى إلا أن يلقى ظلاله على لسان بعضهم .

يقول لكلارك : إن أساس جراحة أبى القاسم هو الجزء السادس من كتاب (بول دوجين) ويأخذك العجب من أن هذا الاسم لم يكن مذكوراً فى الزهراوية ، ولا هذا الأصل معيناً فيه، ولكن يبطل عجبك إذا علمت أن تلك كانت عادة العرب فى طريقة تأليفهم ، فإنهم كانوا يدمجون ما يأخذونه عن الغير من دون تعين فى عملهم الخاص، إلا إذا كان المأخوذ عنه رجلا ذا شهرة عظيمة مثل (أبقراط أو جالينوس ا وهم فى عملهم الأدبى مثلهم فى العلم . ولقد جرى على هذه الطريقة كل من (روجرده برم) ، (وجليوم دهساليست) عندما أخذوا عن أبى القاسم الزهراوى(٢) .

فهذا اتهام للزهراوى بالنقل وبانتحال آراء غيره ، ولكن من يقابل بين المؤلفين يجد أنه بينما اكتفى (بول) بالنقل عن سابقيه

---

(١) الدكتور أسعد الحكيم : مجلة المجمع العلم العربى .

(٢) الهوارى : فضل العرب على الجراحة .

فإن أبا القاسم أضاف إلى ما نقله معلومات صافية من اختباراته ومعارفه الخاصة وتعليقاته، وتداوين مشاهداته تدل على أنه لم يكن ناقلا فقط، بل كان جراحا حاذقاً، وإن وصفه للأمراض ولمختلف العمليات يثبت أنه قام بهذه العمليات مراراً بنجاح[1] .

هذا هو أبو القاسم وتلك شهادات أعاظم أساتذة الطب الحديث في أوربا بفضله وعلو مكانته؟ ولا أرى أن أزيد عليها إلا ما قاله الأستاذ (فرند الإنجليزي): أبو القاسم محي الجراحة ومجددها .

(تساؤل)

ومن حقنا أن نتساءل: إذا كان أبو القاسم الزهراوي بلغ هذه المنزلة فلماذا لم يشع ذكره، ويذع صيته، ويرتفع شأنه؟ لم ظل مغمورا ؟؟ .

سمعنا عن ابن سينا، والرازي، وابن النفيس، وابن زهر، وغيرهم، عرفنا قدرهم، وتغنينا بذكرهم. فما بال الزهراوي لم نسمع به، ولم نعرف عنه ؟؟ .

---

(١) خير الله : الطب العربي ص ١٧٣ .

وهذا سؤال حق ؟ فلم يأخذ الزهراوى مكانه ، ولم ينل حظه للآن من الدراسة والتقدير . فلماذا ؟؟ .

وإذا كان عدم تقدير الزهراوى (الآن) غريباً مثيرا للتساؤل، فالأكثر غرابة أن يكون هذا حاله (قديماً) بين معاصريه ، وأن هذا شأنه عند مؤرخى الطب والحكمة الماضين ، وعند أصحاب كتب التراجم والطبقات والإعلام ! ! فلماذا أجمع هؤلاء على إهمال شأن الرجل ؟ ، وغمطه حقه ؟ لماذا لم نر فى كتب معاصريه ومن بعدهم حديثاً عنه وذكراً له ، وتقديراً لجهده وعمله ؟؟ اللهم إلا نتفاً لا تشفى ولا تكفى من مثل قولهم : « أبو القاسم الزهراوى خلف ابن عباس. طبيب من العلماء » أو: «عله الذى نبغ فيه علم الطب». هكذا !! ولا يزيدون !! إن الأمر فعلا فى حاجة إلى تفسير ؟؟.

وفيما يلح علينا هذا السؤال ، ويأخذنا من كل جانب، لنبحث عن سر إهمال شأن الرجل ، وعدم التنويه بهذا المجد الباذخ ، فيما نحن نعيش مع الزهراوى فى ظل هذا السؤال بدا لنا رأى :

فالذى نراه أن مجد الزهراوى، أو سر مجد الزهراوى، فى نفس الوقت سر إهماله ، وتهوين شأنه !!! ذلك أن عظمة الزهراوى تكمن حقاً فى أنه أول من عنى بالجراحة ، وجعلها فرعاً مستقلا ، ثم أول من زاول الجراحة بنفسه ، أى أجرى العمليات الجراحية بيده

هو !!! لا تعجب ، فقد كان الأطباء قبله يشيرون لرئيس للمرضين فيقطع لهم حيث يشيرون ، ويشق لهم حيث يريدون ، ويعمل لهم مايشاءون ، ولا يمارس الطبيب الجراحة بنفسه!! فلما جاء الزهراوى وأجرى الجراحة بنفسه ، وغمس يده فى الدم والقيح والصديد ، أنف منه الأطباء ، بل وغير الأطباء ، واستنكروا هذا العمل الذى كانوا يرونه مقززا محتقرا ، لايقوم به إلا الحجامون (الحلاقون) ثم كان قيامه بالتشريح ودعوته إليه سببا آخر .

ومن هنا وضعوا الرجل من حيث كان يجب أن يرفعوه ، وتحاشوا ذكره ، وتجنبوا خطته ، وكان الأولى أن يتخذوه لهم قدوة ونبراسا . ولكن هكذا دائما الرواد والقادة يدفعون ثمن ارتياد الطريق ، واقتحام الحواجز ، وتغيير المألوف .

لقد قلنا ذلك استنتاجا ، ساعدنا عليه ما نعرف من أن العرب كانوا يحتقرون كل صنعة يدوية بصفة عامة ؛ وما جاء فى كتاب الزهراوى نفسه من قوله : إن السبب الذى لا يوجد من أجله صانع ماهر فى العمل اليدوى أنه ينبغى لصاحبه أن يرتاض قبل ذلك فى علم التشريح ...

وبعد أن قلنا ذلك استنتاجا ، وقع لنا ما يجعلنا نقوله تحقيقا ؛ فقد وجدنا فى حجة وقف السلطان حسن ، صاحب المسجد والمدرسة

المعروفين بالقاهرة ما يلى : « يصرف ١٢٠ درهما شهريا لطبيبين مسلمين يحضران يوميا لعلاج أرباب الوظائف فى المدرسة وللمسجد والطلبة ، أحدهما طبيب أبدان ، والآخر طبيب عيون ، ويصرف ٤٠ أربعون درهما شهريا لجراح يحضر معهما »

فها قد رأيت !! يجعل الجراح ثلث طبيب، هذا مع أن السلطان حسن قتل سنة ٧٦٢ هـ ،أى متأخرا عن الزهراوى بنحو أربعة قروز، وكانت الأحوال تتطور نحو الاعتراف بشأن الجراحة.

ومن العجيب أن تتبدل الأحوال والأعراف ، وتصبح الجراحة الآن أعلى فروع الطب شأنا ، وهى التى أهمل بسببها شأن الزهراوى.

الزهراوى فى طب اليوم

إذا كان الزهراوى قد ملأ سمع الطب وبصره هذه الأزمان الطويلة ، فما يزيد من قدره ويرفع من مجده أن منزلته ليست تاريخية فحسب ، فلم يتنح أبو القاسم عن المعمل وحجرة العمليات بل مازالت للآن كثير من أفكاره واكتشافاته ترفع رأسها فى كل معهد طبى .

فهو الذى أشار فى عمليات البتر بالقطع فى الأنسجة السالمة عن بعد من الأنسجة المريضة . وهذه بعينها الطريقة المتبعة اليوم(١) .

وفى الالتهابات المتقيحة أوصى بخزع الخراجات القريبة من المفاصل فى بادىء ظهورها ، وباستئصال جميع الأقسام المريضة فى الالتهابات العظمية . وذلك خير ما توصى به الجراحة الحديثة(٢) .

وقد توسع الزهراوى فى استعمال الكى فى فتح الخراجات

---

(١) أسعد الحكيم : مجلة المجمع العلمى العربى .

(٢) نفس المصدر السابق .

واستئصال السرطان ، وفضله على استعمال المشرط مخالفا بذلك تعاليم اليونان .

ونحن اليوم نعتقد بأن استعمال الكى خير الوسائل الجراحية لفتح الخراجات .

وما زالت طريقته فى ربط الشريان ووقف النزيف معترفا بها للآن[1] .

ونظريته فى الاستعداد الخاص فى بعض الأجسام للنزيف «هيموفيليا» ما زالت قائمة . وكذلك وضع (والشر) فى الولادة ، وعملية تفتيت الحصاة داخل المثانة وفتح القصبة الهوائية ، وتحويل مجرى البول ، مازالت هذه الابتكارات التى ابتكرها أبو القاسم تجرى فى المستشفيات والمعاهد الطبية[2] . قال (روز وكارلس) فى كتابهما ، بعد وصف مطول فى كيفية تنظيف الشريان : ضع إبرة Anevrism أنيورزم أى صنارة ذات طرف مثقوب وحركها إلى أعلى وأسفل حتى تخلص الشريان مما حوله ، وبعد إنفاذ الخيط فيها انزعها من مكانها واربط الشريان ، والقسم الأخير من كلام أبى القاسم — عن جراحة الشريان — ينطبق على مبادىء علمية عصرية فهو يوافق ما فى الكتب الحديثة من أن مضاعفات ربط

(١) ، (٢) خير الله : الطب العربى ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

الشريان هي إسراع التعفن ، وحدوث النزف بعده ، وهو المعروف بالنزيف الثانى .

ويعد من مبتكرات أبو القاسم — كما أشرنا — أنه أول من أدخل الإبريسم أو الحرير في ربط الشريان وأول من أدخل أوتار العود فيها أيضاً ، وهى مصنوعة من جدار أمعاء الغنم ، وهو مايتخذ منه الخيوط الجراحية في الوقت الحاضر ، وكل هذين من الخيوط يستعمل إلى الآن ، وفوائدها ليس هنا موضع شرحها ولكن أبا القاسم يلمح إليها قائلا إنها مما لا يسرع إليه العفن .

وعملية الجراح العربي في الحصوة لازالت تعمل إلى اليوم بقليل من التصرف كأن يكون الشق على مجس يوضع في المثانة سواء كان الشق في الوسط أو إلى أحد الجانبين .

وقد زاحمت هذه عملية أخرى في إخراج الحصوة من جهة البطن في النصف الأخير من القرن الماضى ، ولكن عملية أبى القاسم مازالت حافظة لكيانها ، وله فخر ابتداعها خصوصاً في تفتيت الحصوة قبل إخراجها .

وكذلك عملية الشق في إخراج مايسقط في الأذن مما لا يزال استعماله إلى اليوم ، وبالمثل طريق غسيل الأذن بالحقن .

كذلك استعمال الماء المالح فى غسيل الجروح التى يخشى من تقيحها ، وهو ما يفضل استعماله إلى اليوم لأنه يدر فيضان المصل فى الجرح ، فيغسله ويمنع تعفنه .

وكذلك علاج الشعرة فى العين بالقطع والخياطة التى مازالت تعمل للان مع تعديل بسيط .

علاج الظفرة : شرح أبو القاسم طريقة علاجها على النحو الذى ذكرناه فى موضوع سابق ، ومازالت طريقته مستعملة إلى اليوم .

علاج السيل فى العين: تلقط بالصنارة ، ثم تقطع كل واحد بالمقص وتعمل هذه العملية للان .

الجرد : طريقته واستعماله وآلته كالحديث تماماً.

الكمية : (المدة الموجودة خلف القرنية) تشق القرنية بمبضع رقيق فى الأكليل وهـذه العملية بنصها وفصها فى الكتب الحديثة .

فى قطع اللوزتين : وهى عملية حديثة أيضاً إلا أنه جرى كثير من التعديل فى شكل الآلات .

أورام اللهاة : مازالت على الطريقة عينها .

طريقة البذل فى الاستسقاء : بإدخال أنبوبة طرفها مبرى كبرية القلم بعد شق جدار البطن وهـــذه لا تزال مستعملة إلى الآن .

كيفية شق الأدرة المائية أو القيلة : طريقة الشق وإخراج الخصية كأحسن الطرق المعروفة الآن وإنما كان أبو القاسم يفضل قطع الصفاق بأكمله ، وهذا لـكيلا يعود الماء وذلك مايوصى به أكثر الجراحين .

علاج الناصور الذى فى مآق العين: بالـكى :وهى طريقة حديثة أيضاً (١) .

---

١ ـ حسين الهراوى : وقد يـكون جرى شىء من التعديل او التحسين فى هذه المبتكرات التى ذكرنا أنها مازالت تعمل للان فان كلام الدكتور الهراوى هذا كان فى سنة ١٩١٧ م

خاتمة ونتائج

ويمكننا الآن أن نقول أننا وصلنا إلى النتائج الآتية :-

١ — إن أبا القاسم الزهراوى كان جراحاً عظيما ، أو هو الجراح الاول . كما كان طبيبا عالما وكيمائياً ماهراً .

٢ — إنه كان أستاذاً ومرجعاً للطب قرونا عدة من الحادى عشر إلى السابع عشر .

٣ — إن كتابه كان أستاذ أوروبا وجامعاتها فى عصر النهضة .

٤ — أن كثيراً من مبتكراته فى الطب والجراحة مازالت تجرى للان بنفس أسلوبه .

٥ — إن المسلمين قادوا الإنسانية وأخرجوها من جاهليتها وحفظوا تراثها .

٦ — إن العرب لم يعرفوا التعصب لدين أو لجنس .

٧ — إن خرافة العقلية الآرية التى يروجها المستشرقون ليست

إلا حلقة من حلقات السلسلة التي يحاول الغرب أن يخنقنا بها •

٨ — وليس بعسير على من كان هذا شأنه أن يعود إليه مجده إذا عرف الطريق ، وها قد وضعنا أقدامنا عليه ، وإنا إلى المجد سائرون •

ومن المناسب أن أختم هذه الصفحات بتلك الفقرة من كتاب « حمراء غرناطة » لمؤلفة (ألبرشامدور) قال :

« عاش العربي في فجر التاريخ ، في تلك الأرض القاحلة ، تلهب الشمس ذرات رمالها ، عاش في تلك الصحراء يحتمل التعب والجوع والعطش والعزلة ، فاتخذ النجوم له دليلا ، والعلم مرشداً وسبيلا . إن هذا العربي الذكي الشجاع الذي استطاع أن يجمع علم العالم في مائة عام ، كما استطاع أن يفتح نصف العالم أيضا في مائة عام ، فقد ترك لنا في « حمراء غرناطة » آثار علمه وفنه .

إن هذا العربي الذي نام نوما عميقا مئات السنين ، وقد استيقظ وأخذ ينادي العالم ، هأنذا أعود إلى الحياة ، لا لأكون آلة طيعة تسيرها العواصم الكبرى ووسائلها الجهنمية ، بل لأحيا حياة مستقلة مناضلة . ثم يقول : من يدرى ؟ قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالعرب ، فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية . ثم يقول : لست أدعى النبوة ، لكن الأمارات

الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة ، لاتقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها »

ثم تسيطر عليه روح التعصب فينادي قومه قائلا : « أبيدوا أشباح العرب فى الحمراء ... أبيدوها قبل أن تبعث ، ولكن هيهات أن نستطيع إلى ذلك سبيلا » ا . ه .

ونقول له : هيهات ، هيهات ، فقد استيقظ العملاق ، وقد أجمع أعلام السياسة والتاريخ والاستشراق من طراز جوستاف لوبون ، وولز ، وترند ، وستانلى لين بول وغيرهم . على أن العرب (المسلمين) لو وجدوا الأسلوب الصالح الموحد لكيانهم لكان العالم كله فى خدمتهم .

وها قد وضح الطريق ونحن عليه صاعدون بإذن الله .

مصادر البحث

١ — أحمد عيسى بك

آلات الطب والجراحة عند العرب — القاهرة سنة ١٩٢٥م .

٢ — ابن أبى أصيبعة

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء .

٣ — اسماعيل باشا البغدادى

هدية العارفين — جزءان — استامبول سنة ١٩٥٥م

٤ — أمين أسعد خير الله

الطب العربى — بيروت سنة ١٩٤٦م .

٥ — ابن بشكوال

الصلة — جزءان — مجريط سنة ١٨٨٣م.

٦ — الياس سركيس

معجم المطبوعات — ١١ جزءاً — القاهرة سنة ١٩١٩م .

٧ — حسين المراوى

فضل العرب على الجراحة ـ القاهرة سنة ١٩١٧م

٨ — الحميــدى

جذوة المقتبس — مصر سنة ١٩٥٣م .

٩ — حاجى خليفة

كشف الظنون ـ استامبول سنة ١٩٤١م .

١٠ — خير الدين الزركلى

الأعلام ـ ١٠ أجزاء ـ القاهرة سنة ١٩٥٤م .

١١ — زكى على

رسالة الطب العربى وتأثيره فى مدنية أوربة — القاهرة سنة ١٩٣١م .

١٢ — عمر رضا كحالة

معجم المؤلفين .

١٣ — جوستاف لوبون

حضارة العرب ـ القاهرة سنة ١٩٤٥م .

١٤ — محمد كرد على

الإسلام والحضارة العربية جزءان — القاهرة سنة ١٩٣٦م .

١٥ — مجلة المجمع العلمي العربي
تاريخ الطب عند العرب ـ أسعد الحكيم ج ٦

١٦ — المقري
نفح الطيب ـ ١٠ أجزاء ـ القاهرة سنة ١٩٤٩م .

١٧ — البستاني
دائرة المعارف

١٨ — صناجة الطرب في أخبار العرب (أصول للمعارف) .

١٩ — تاريخ الأندلس السياسي والعمراني .

٢٠ — الدكتور النجاني الماحي ، عضو مجلس السيادة السوداني .
مقدمة في تاريخ الطب العربي .

٢١ — الدكتور شوكت الشطي
الطب عند العرب .

فهرست

مطبعة التقدم

٤٤ شارع الروايدى بالمنيرة - القاهرة

تليفون ٨٤١٤٤١

رقم الإيداع ٣٢٦٨/٧٩

الترقيم الدولى ٢ - ٦١ - ٧٣٠٨

هـذا الكتـاب

في هذه الأيام التى تجذبنا فيها احلام القوة المـادية ، ونتطلع اليها لنهب من رقدتنا ونعيد مجد أمتنا ، نرى الكثيرين يندفعون نحو الغرب ويلتمسون عنده مصدر هذه القوة واسبابها .

ويجذب ابصارهم ويأسر قلوبهم ، ما حققـه الغرب من قوة وجبروت . ويغشي ذلك عيونهم ، فلا يبصرون ضـوء تاريخنا العظيم ، وعلم آبائنا ومجدهم ونهضتهم وحضارتهم .

ولست ازعم اننا يمكن أن نعيش على كيمياء جابر بن حيان ، وطب الزهراوى ، وبحوث الحسن بن الهثيم ، ورياضيات البيرونى ، وفلسفة ابن سينا . وانما الذى أعنيه تماما هو ان كل تقـدم لا يرتكز على تلك القاعدة الراسخة الثابتة من اعمال آبائنا — هو شجرة بغير جذور ، وبناء بغير أساس ، ولن يكون لأى قوة مادية ننالها قيمة ما لم تكن على وعى بحظ آبائنا ونصيبهم من أسـاس ما وصل اليه العالم الآن .

بل ان تلك القوة التى نحصلها ربما تكون وبالا علينا اذا كان مهرها انقطاعنا عن تاريخنا ونسيان أمجاد أسلافنا .

فلابد أن نردد مع شاعرنا :

نبنى كما كانت اوائلنا تبنى ونفعـل فـوق ما فعلوا

وأملنا ان نكون بهذه الصفحات ، قد وضعنا عـلامة عـلى الطريق ، او قدمنا ومضة ضوء فى سبيل الصـاعدين الى العلا والمجد . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

اسعد سيد احمد

دار الأنصار

مكتبة • طباعة • نشر • توزيع

٨١ شارع البستان ناصية شارع الجمهورية - عابدين

ت : ٩٣١٥٨١